وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الجامعة العراقية

كلية الآداب / قسم التأريخ

الحياة المعيشية لعلماء مصر وبلاد الشام

في عصر دولة المماليك البحرية ٦٤٨ ـ ٧٨٤ هـ

رسالة تقدَّمت بها الطالبة

وديان هيثم داود

إلى مجلس كلية الآداب – الجامعة العراقية

وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير آداب في التأريخ الإسلامي

بإشراف

أ. م. د. عمار مرضي علاوي

١٤٤١هـ بغداد ٢٠١٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ

لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

صدق الله العظيم

سورة الزمر
الآية (٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

إقرار المشرف

أشهد بأنْ إعداد الرسالة الموسومة بـ **(الحياة المعيشية لعلماء مصر وبلاد الشام في عصر دولة المماليك البحرية ٦٤٨ ـ ٧٨٤ هـ** ، للطالبة **(وديان هيثم داود)** ، جرت تحت إشرافي في كلية الآداب – الجامعة العراقية / قسم التاريخ ، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي .

التوقيع :

المشرف : أ. د. عمار مرضي علاوي

/ /٢٠١٩م

بناءً على توصية المشرف ، أُرشح الرسالة للمناقشة .

التوقيع :

رئيس القسم : أ. م. د. وسام حسين عبد الرزاق

/ /٢٠١٩م

شكـــــر وثـــــنـــــاء

أحمـد الله أولا وأشـكره إذ وفقنـي علـى اتمـام هـذه الرسـالة . ومـن بـاب رد الفضـل لأهلـه أتقـدم بجزيـل الشـكر وعظـيم الامتنـان إلـى أسـتاذي الـدكتور عمـار مرضـي عـلاوي لاقتراحـه موضـوع الرسـالة، فكـان مشـرفاً ومرشـداً فـي عطائـه الكبيـر وجهـده العظـيم فـي انجـاز هـذا العمـل ، فلـم يبخـل علـيّ لا بجهـده ولا بوقتـه ولا بمكتبته العامرة ، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

كمـا أَتقـدم بالشـكر والتقـدير إلـى الأسـتاذ الـدكتور حسـين داخـل البهـادلي عميـد كليـة الآداب لوقوفـه الـدائم مـع طلبتـه ورعايتـه لنـا طيلـة سـنوات الدراسـة ، والشـكر لـرئيس قسـم التـاريخ الأسـتاذ المسـاعد الـدكتور وسـام حسـين عبـد الـرزاق علـى بذلـه الجهـد والمتابعـة طيلـة الدراسـة . وأقـدم شـكري الجزيـل إلـى جميـع اسـاتذتي الأفاضـل فـي قسـم التـاريخ الـذين تتلمـذت علـى أيـديهم ونهلـت مـن علـومهم فـي السـنة التحضـيرية . والشـكر موصـول الـى العـاملين فـي مكتبـة كليـة الآداب علـى مـا قـدموه مـن عظـيم العـون والمسـاعدة . وكـذلك مكتبـة كليـة الآداب جامعة بغداد ، والمكتبة المركزية في الجامعة المستنصرية .

ولكـل مـن أَسـهم فـي إنجـاز هـذا العمـل مـن نصـيحة أو عـون أو ملاحظـة، وشـكري لزميلاتـي وزملائـي فـي مرحلـة الماجسـتير . أخيـرا ولـيس آخـرا شـكري لـرئيس وأعضـاء لجنـة المناقشـة الـذين تكرمـوا بقـراءة الرسـالة وتـدوين ملاحظـاتهم القيمة عليها لتكون بأفضل حال.

الموضوع	رقم الصفحة
الآية القرآنية	أ
إقرار المشرف	ب
الإهداء	ت
شكر وثنـاء	ث
المقدمة : نطاق البحث واهم المصادر	١-٨
الفصل الأول : قيام دولة المماليك البحرية وأثرها على مكانة العلماء	٩-٣٤
المبحث الأول : قيام دولة المماليك البحرية	١٠
أولاً – نظرة على الاوضاع السياسية	١٠-١٧
ثانياً – مظاهر الحياة العلمية	١٧-٢١
المبحث الثاني طبيعة المجتمع المملوكي وأثرها في الحياة الاجتماعية للعلماء	٢٢
أولاً – التركيبة المجتمعية في العصر المملوكي	٢٢
١ . التركيبة السكانية	٢٢-٢٤
٢ . التركيبة الدينية	٢٤-٢٥
ثانياً – المنزلة الاجتماعية للعلماء	٢٥
١ . التصنيف المجتمعي	٢٥-٢٨
٢ . ألقاب العلماء	٢٨-٣٠
ثالثا . الحياة العائلية	٣٠
١ . زي العلماء	٣٠-٣٢
٢ . ركوب العلماء	٣٢
٣ . مسكن العلماء	٣٢-٣٣
٤ . الزواج	٣٣-٣٤

الفصل الثاني : اسهام العلماء في الوظائف الرسمية	٣٥-٧٨
لمحة تاريخية عن النظام الإداري المملوكي	٣٦-٣٨
المبحث الاول الوظائف الدينية	٣٩-٤٠
أولا. وظيفة القضاء	٤٠-٤٤
ثانيا . وظيفة قاضي القضاة	٤٤-٤٧
ثالثا . وظيفة افتاء دار العدل	٤٧-٤٨
رابعا . وظيفة قضاء العسكر	٤٨-٤٩
خامسا . وظيفة بيت المال	٤٩-٥٠
سادسا . وظيفة الحسبة	٥٠-٥٤
سابعا . وظيفة ناظر الجيش	٥٤-٥٥
ثامنا . وظيفة نقابة الاشراف	٥٥-٥٦
تاسعا . وظيفة نظر الاحباس المبرورة	٥٦-٥٧
عاشرا . وكالة بيت المال	٥٧-٥٨
حادي عشر . وظيفة المواريث الحشرية	٥٨
ثاني عشر . وظيفة الإمام	٥٨-٥٩
ثالث عشر . وظيفة الخطابة	٥٩-٦٠
رابع عشر . وظيفة التدريس	٦١-٦٦
المبحث الثاني . الوظائف الديوانية	٦٧
أولا . الوزارة	٦٧-٦٩
ثانيا . وظيفة كاتب السر	٧٠-٧٣
ثالثا . وظيفة الدوادار	٧٣-٧٥
رابعا . ناظر الخاص	٧٥-٧٦

خامسا . ناظر بيت المال	٧٦–٧٧
سادسا . ناظر الجيش	٧٧–٧٨
الفصل الثالث مزاولة العلماء للنشاط المهني والحرفي	٧٩–١٠٥
المبحث الاول . طبيعة العمل المهني والحرفي	٨٠
أولا . نظرة على أهمية العمل في الاسلام	٨٠–٨١
ثانيا . التنظيم المهني والحرفي في دولة المماليك البحرية	٨٢–٨٣
المبحث الثاني . مهن العلماء وحرفهم	٨٤
أولا . التجارة	٨٤–٨٧
ثانيا . النجارة	٨٨
ثالثا . التكسب بالشهادة	٨٨–٩٠
رابعا . النساخَّون والخطَّاطون	٩٠
خامسا . الحياكة والنسيج	٩١–٩٢
سادسا . الصياغة	٩٢
سابعا . الحدادة	٩٢–٩٣
ثامنا . الدلالة	٩٣–٩٤
تاسعا . العطارة	٩٤–٩٥
عاشرا . الزراعة	٩٥–٩٦
حادي عشر . مهنة الصناعة	٩٦–١٠٢
ثاني عشر . تجارة الكتب	١٠٢–١٠٣
ثالث عشر . مهنة نسخ الكتب	١٠٣
رابع عشر . مهنة الخياطة	١٠٤
خامس عشر . مهنة الطب	١٠٤–١٠٥

الفصل الرابع المستوى المعاشي للعلماء	١٠٦-١٢٨
المبحث الاول . نظرة على طبيعة الحالة المعيشية في مصر وبلاد الشام	١٠٧-١١٤
المبحث الثاني . المستوى المعيشي للعلماء	١١٥-١٢٨
الخاتمة	١٢٩-١٣١
المصادر والمراجع	١٣٢-١٤٥
ملخص الرسالة باللغة الإنكليزية	A-B

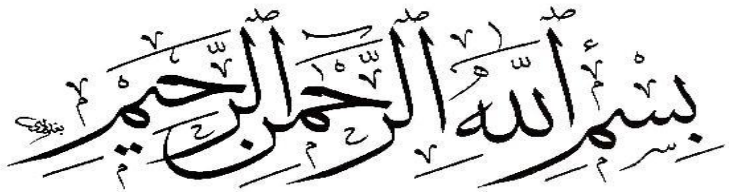

المقدمـــة

الحَمْدُ للهِ رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الغرِّ الميامين.

يعد قيام دولة المماليك البحرية سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م حدثا مهما على الصعيدين الداخلي والخارجي ، فمن جهة احتوائها للفراغ الذي أحدثه الغزو المغولي بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، وإعادة إحياء الخلافة العباسية من جديد على أرض مصر . وتصديها للغزوين الصليبي والمغولي وتخليص المنطقة العربية الاسلامية من امتداهم جهة أخرى .

ولما كانت مصر وبلاد الشام حاضنة سياسية وفكرية بعد أن أفل نجمها في بغداد- ولو لمدة وجيزة . فإن ذلك كان سببا مقنعا ووجيها أن يقصدها العلماء من خارجها ويكونوا مع علماء مصر وبلاد الشام وحدة فكرية من أجل ديمومة الحركة العلمية .

لذلك نجد أن العلماء كانوا من أهم شرائح المجتمع المملوكي الذين كانوا سببا في بقاء حكم المماليك قائما في ظل تعاونهم وتقديم المشورة والنصح لسلاطينها، مع عدم الخنوع للتجاوزات التي تحصل في سياساتها، كل ذلك جعل من العلماء مؤثرا اجتماعيا وسياسيا وفكريا .

ومن هذا المنطلق ولبيان حقيقة الحياة المعيشية للعلماء في ظل دولة المماليك البحرية جاء هذا العنوان الذي هو بمثابة هدية قيمة من أستاذي الدكتور عمار مرضي علاوي ، للولوج في تفاصيل حياة العلماء وما كانوا عليه من أحوال وتقلبات .

وفي سياق البحث التاريخي ولضمان عدم تكرار الموضوعات التاريخية ، وبعد البحث والتقصي لم نجد دراسة أكاديمية قد غطت هذا العنوان أو تناولته بشكل مستقل ، مع التنبيه أن هناك دراسات ذكرت جوانب معينة من دور العلماء بعيدا عن هذا العنوان ، مثال ذلك دور العلماء في مصر خلال العصر المملوكي ، وهي رسالة ماجستير في كلية التربية . الجامعة المستنصرية ، إذ تناول الباحث فيها الدور السياسي للعلماء ، وموقفهم من أهل الذمة .

تأتي أهمية الموضوع من أن العلماء كانوا الواجهة الشرعية لحكم المماليك البحرية وفي الوقت نفسه العامل الرئيس في الوقوف بوجه التجاوزات التي تطال فئات المجتمع ، فضلا عن ذلك أن دراسة الحياة المعيشية للعلماء يعطي دلالة واضحة عن حقيقة الحياة المعيشية في تلك الحقبة ، يوصف العلماء فئة وشريحة متصلة ببقية الفئات ، فمن خلالها نستطيع قياس ذلك المستوى المعاشي.

اتبعت الدراسة منهجا تاريخيا يعتمد بالدرجة الاساس على المنهج السردي والوصفي والاستقرائي في ضوء المصادر المتوافرة ، ذلك أن صلب الموضوع هو دراسة تراجم العلماء المتناثرة في بطون تلك المصادر ، مع مراعاة التحقق من الترجمة في أكثر من مصدر وبيان حال تلك الترجمة.

اقتضت طبيعة الدراسة أن نقسمها إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ثم المصادر والمراجع.

جاء **الفصل الأول (قيام دولة المماليك البحرية وأثرها على مكانة العلماء)** وتضمن مبحثين ، اختص المبحث الأول بدراسة قيام دولة المماليك البحرية ، مع التركيز على الاوضاع السياسية في العصر البحري ، وكذلك بيان مظاهر الحياة العلمية . أما المبحث الثاني فكان عن طبيعة المجتمع المملوكي وأثرها في الحياة الاجتماعية للعلماء ، إذ تناول فئات المجتمع المملوكي مع بيان مكانة ومنزلة العلماء في المجتمع ونظرة الناس اليهم ، ومعرفة القابهم وملبسهم ومسكنهم وغير ذلك .

بينما كان **الفصل الثاني (إسهام العلماء في الوظائف الرسمية)** الذي حوى مبحثين ،مسبوقين بنظرة عن الجهاز الإداري المملوكي وطبيعته ، لذلك كان المبحث الاول عن الوظائف الدينية التي تقلدها العلماء ، والوظائف الدينية هي التي تعنى بالحفاظ وديمومة العمل في المؤسسات الدينية ، فنجد أن العلماء تولوا وظائف متنوعة مثل القضاء والافتاء ، وبيت المال والحسبة ونقابة الاشراف والاحباس والمواريث ، فضلا عن الخطابة والامامة والتدريس . بينما تطرق المبحث الثاني إلى الوظائف الديوانية التي تولاها العلماء ، ونقصد بها تلك الوظائف التي تعنى بالعمل المدني الاداري الذي يتماشى مع الحفاظ على مؤسسات الدولة ، فكانت تلك الوظائف مثل الوزارة وكاتب السر والدوادار وناظر الجيش . وهذه الوظائف شهدت أمانة وكفاءة وحسن سياسة من العلماء الذين أثبتوا أنهم بمستوى المسؤولية في المناصب كافة التي تناط بهم .

وأما بخصوص **الفصل الثالث (مزاولة العلماء للنشاط المهني والحرفي)** فكان على مبحثين ، تضمن المبحث الأول طبيعة العمل المهني والحرفي ، معرجين على أهمية العمل في الاسلام وفق الآيات الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة ، ثم الحديث عن طبيعة ذلك التنظيم المهني من اختيار رئيس للنقابة وتوزيع المهن وأماكنها في الاسواق المصرية والشامية . أما المبحث الثاني فجاء ليعرف وليبين بمهن العلماء وحرفهم في تلك الحقبة ، وهي متنوعة ومتعددة دلت على الحاجة لها والفاقة التي ألمت بهم لكسب قوت يومهم ، فمن تلك المهن التجارة والنجارة والتكسب بالشهادة والنسخ والحياكة والصياغة والحدادة والزراعة والصناعة وتجارة الكتب والنسخ ، فضلا عن مهنة الطب . وقد تفاوتت تلك المهن والحرف من واحدة لأخرى بحسب طبيعتها ونظرة الناس اليها .

في حين جاء الفصل الرابع الذي هو خاتمة فصول الرسالة **(المستوى المعاشي للعلماء)** وهو على مبحثين، المبحث الأول نظرة على طبيعة الحياة المعيشية في مصر وبلاد الشام ، إذ تم استعراض أهم محطات المعيشة في ذلك العصر والمؤثرات التي كانت سببا في انخفاض معدل المعيشة لفئات المجتمع بصورة عامة . في حين جاء المبحث الثاني عن مستوى المعيشة للعلماء ، إذ تم فيه دراسة الرواتب التي تقاضاها العلماء الذين عملوا في وظائف الدولة ، وكذلك ما درته الاوقاف عليهم ، في حين تم دراسة أثر الازمات الاقتصادية في مستوى المعيشة سواء للموظفين أم المهنيين من العلماء .

ثم الخاتمة التي تناولت نتائج الدراسة وما توصلت إليه في ضوء دراسة كل ما سبق من معلومات.

إن هذا العمل ما هو إلا جهد يسير في بحر المعرفة التاريخية ، التي أرجو أن أكون قد وفقت في تقديم دراسة أكاديمية تعنى بدراسة الحياة المعيشية للعلماء في ذلك العصر .

عرض لأهم المصادر والمراجع

اعتمدت الدراسة في بيان مضامين المادة التاريخية على العديد من المصادر المتنوعة التي كان لها الأثر الكبير في إغناء مادة الرسالة العلمية في ضوء المعلومات الموجودة في ثناياها .

ـ كتب التاريخ العام:

تعد الكتب التاريخية ذات مادة علمية رئيسة على الرغم من أنها ركزت على الجانب السياسي في عرض الاحداث ، لكنها في الوقت نفسه تضمنت ذكر تراجم العلماء والادباء وغيرهم، فضلا عن ايرادها اشارات عن الجوانب الحضارية .

كتاب المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م) الذي يعد من الكتب المهمة في ذلك العصر ، كون أن أبا الفداء كان من رجالات الدولة وعمل فيها ، مما يعطي كتاباته أهمية كبيرة ، وقد أفادت الدراسة منه في بعض جوانبها ، لاسيما الجانب السياسي وكذلك في الاخبار الواردة عن بعض التراجم .

وكتاب البداية والنهاية لأبن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) الذي يعد موسوعة تاريخية مهمة في الحقب كافة التي كتب عنها ومنها على وجه الخصوص العصر المملوكي ، إذ تناول العديد من الجوانب السياسية والحضارية، وجاء كتابه على شكل الحوليات مستوعبا لكثير من التراجم الذين كان لهم أثرا في تلك الدولة, وقد أفادت الدراسة منه في الفصلين الثاني والثالث.

كذلك كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م) الذي يعد من أشهر الكتب التاريخية في تلك الحقبة لما عرف عن المقريزي بعلمه وأمانته ، فجاء السلوك شاملا لتلك الحقبة ، فضلا عن أن كتاباته امتازت بالدقة والموضوعية ، وتناول العديد من الجوانب لاسيما للعلماء الذين تولوا الوظائف في حقبة المماليك البحرية.

وكتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للعيني (٨٥٥هـ/١٤٥٢م) الذي يعد موسوعة تاريخية ضخمة ، وتكمن أهمية هذا الكتاب في أن مؤلفه عاش ومات في عصر سلاطين المماليك ، فهو بذلك معاصر وشاهد عيان لأحداث تلك الحقبة ، وتمت الإفادة منه لكونه حافلاً بالأحداث التاريخية والسياسية والاقتصادية في العصر المملوكي.

وكتاب الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي (ت٩٢٧هـ/١٥٢١م) وهو من مؤرخي بلاد الشام المعروفين ، وجاء كتابه مستوعبا للفعاليات الدينية والنشاط الفكري في بلاد الشام في دولة

المماليك ، إذ تعرض للمساجد والمدارس ودور العلم الاخرى ، وذكر العلماء الذين تولوا التدريس فيها وأبرز نشاطاتهم .

- **كتب التراجم :**

تعد كتب التراحم مصدرا رئيسا في تقديم الصورة الكاملة عن الاحداث التي دونتها ، إذ أنها قدمت قيمة علمية كبيرة عن طريق الترجمة للشخصيات سواء كانوا خلفاء أو سلاطين أو رجال دولة ، وكذلك العلماء وغيرهم من الشخصيات ، فكانت الترجمة وافية واعطت الصورة الكاملة عن ذلك العصر ، ومن هذه الكتب

سير أعلام النبلاء للذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ، وهو بحق كتاب نفيس لما حوا من معلومات شاملة في كافة الجوانب ، وقد غطى الكثير من الشخصيات في الدولة العربية الاسلامية ومنهم العلماء ، فضلا عن كونه قد عاصر حقبة المماليك ، فجاءت كتاباته شاملة ومفصلة ، وقد تناول الكثير من حياة العلماء لاسيما العلمية والفكرية منها .

وكتاب الوافي بالوفيات للصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، الذي كان مقاربا لما كتبه الذهبي ، فضلا عن معاصرته للعصر الملوكي ، وجاءت كتاباته مستوعبة ومستوفية فيما يخص تراجم العلماء وغيرهم من التراجم ، إذ قدم صورة كاملة عنهم .

وكتاب طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م)، وهو كتاب متخصص في علم التراجم للفقهاء الشافعية حصرا حسب طبقاتهم، وتطرق بشكل مفصل للفقيه الشافعي وكل ما يتعلق به ، ومكانته بين علماء عصره وشيئا من مآثره .

وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م)، وهو بحق مؤرخ كبير ولديه الامكانية العلمية باعتباره من شراح الحديث النبوي الشريف، وقد وظف ذلك في كتبه التاريخية ومنها الدرر ، الذي جعله موسوعة في التراجم المتعددة ، إذْ تناول أغلب الشخصيات في القرن الثامن الهجري .

وكتاب المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) ، وهو كتاب مهم في الحقبة التي عاصرها ، وجاء شاملا للتراجم التي تناولها ، فضلا عن ايرادهن معلومات عن الجانب الاداري والسياسي في تلك الحقبة .

- **كتب الأدب :**

تعد هذه الكتب ذات قيمة تاريخية على الرغم من كونها ذات طابع أدبي ، إذ ركزت على الجوانب الادارية وتخصصات البلاط السلطاني ، فضلا عن الجانب التاريخي الذي لا غنى عنه ، وكذلك ركزت على الجانب الوظيفي كالوظائف الدينية والديوانية .

كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) ، الذي يعد موسوعة أدبية وتاريخية ضخمة ، ووظف فيه كل ما له صلة بالجانب الوظيفي ، بداية من تاريخ استحداثها وطبيعتها في العصر الذ وجدت فيه .

وكتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) ، الذي يعد موسوعة متكاملة ف مختلف الفنون ، ولعل ما يميز كتابه هو كثرة ما جاء فيه من وثائق تخص الجوانب السياسية والادارية وغيرها ، كذلك قدم القلقشندي شرحا موجزا عن المصطلحات المملوكية التي تتعلق بالوظائف والادارة والمصطلحات العسكرية .

- **كتب الجغرافية والرحلات:**

تعطي هذه المؤلفات مادة تاريخية وجغرافية عن كافة البلدان التي تناولتها اقلامهم سواء بالرحلة أو الوصف اعتمادا عن آخرين ، فضلا عن كونها قد أعطت تصور واضح عن المدن المصرية والشامية ، وما يميزها أنها اهتمت بذكر العديد من الجوانب كالمسافات والمساحات والجانب الاقتصادي ووحدات الوزن والمكيال ، والعلاقات الاجتماعية .

معجم البلدان لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ، وهو موسوعة جغرافية متكاملة وصفت بالشمولية والدقة واستيعاب كافة البلاد والاقاليم ، فضلا عن ذكره لكثير من الامور التي تخص الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لاسيما مصر وبلاد الشام .

وكتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار للعمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) ، كذلك يعد من أهم الكتب التي أغنت المجال الجغرافي والتاريخي على حدّ سواء ، فضلا عن تفصيله للملكتي مصر وبلاد الشام كما هو أوردها بهذا الاسم ، وجاءت معلوماته دقيقة وفيها الكثير من الجوانب التاريخية .

كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري (ت٩٠٠هـ/١٤٦١م) ، والذي يعد من الكتب المهمة إذ عرَّف فيه مؤلفه لكثير من المدن التي تخص مصر وبلاد الشام .

- **المراجع الحديثة:**

تعد كتب المراجع رافدا من روافد الكتابة التاريخية في مجال الاستدلال والمقارنة ولتوضيح بعض القضايا التي تطرح من قبل المؤرخين ، ومن هذه الكتب .

كتاب مصر والشام في عصر الأيوبيون والمماليك ، للدكتور سعيد عاشور، الذي يعد مرجعا مهما وفي مقدمة من كتبوا عن حقبة المماليك ، وفيه العديد من القضايا التاريخية .

وكتاب عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي لمحمود رزق سليم ، الذي يعد موسوعة في تناول الجوانب العلمية في ذلك العصر بطريقة سلسة ومرتبة .

وكتاب نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر للدكتور عبد المنعم ماجد ، الذي استعرضَ فيه الاسس التي قام عليها سلاطين المماليك في سبيل نجاح دولتهم وديمومة العمل الاداري .

ومن البحوث التي كان لها بصمة في كتابة هذه الدراسة ، البحث الموسوم الحياة المعيشية والاقتصادية للعلماء في العصر المملوكي للدكتور عمار مرضي علاوي ، الذي كان بمثابة خريطة الطريق والدليل في كتابة الدراسة .

أخيرا وليس آخرا فقد توخينا الأمانة العلمية في كل ما جاءت به الدراسة من مادة علمية متنوعة بين جوانب ادارية وسياسية وأخرى اقتصادية ، وفي هذا المقام لا أدعي الكمال ، فالكمال لله وحده سبحانه وتعالى ، فما كان فيه من صوابٍ فمن الله ، وما كان غير ذلك فمن نفسي.

البـــــــاحثة

الفصل الاول

قيام دولة المماليك البحرية وأثرها على مكانة العلماء

المبحث الاول قيام دولة المماليك البحرية

أولاً . نظرة على الاوضاع السياسية:

ترجع لفظة المماليك الى الفعل ملك ، الذي يعني الرقيق بقصد الشراء للتربية والاستعانة بهم في الجيوش ، وحلت هذه اللفظة محل لفظة العبيد التي تعني العبودية ، فالعبد يولد من الرقيق ، بينما المملوك يولد من أبوين حرين ، كما أن العبد قد يكون أسوداً بينما المملوك غالبا ما كان أبيض اللون[١] .

وفي أصل المماليك نجد أن موطنهم الاصلي أواسط آسيا والقفجاق[٢] ومناطق أوربية ومنهم الجنس التركي والجركسي والرومي والزنجي والحبشي وحتى الفارسي، إذ كانوا يقعون لأسباب متعددة سواء الحروب أو التجارة بيد التجار الذين يبيعونهم في المدن العربية والاسلامية، فتتم عملية شرائهم من قبل الحكام والامراء بأثمان باهظة من أجل استخدامهم في دار الخلافة والفرق العسكرية ، ونهم من يرتبط بالسلطان أو الامير ، ولعل الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) أول من استخدمهم بكثرة [٣] .

وبدأ نفوذ المماليك يظهر بالتوسع والانتشار في الدولة الايوبية (٥٦٧-٦٤٨هـ/ ١١٧١-١٢٥٠م) لاسيما في سلطنة الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٢٩-١٢٤٩م) الذي استخدمهم بكثرة في دولته حتى أصبحوا أكثر جنده ، فقد قُدِّرَ عددهم حوالي (١٠٠٠مملوك) تم

---

(١) علاوي، عمار مرضي ، النشاط التجاري في مصر وبلاد الشام في ظل دولة المماليك البحرية، مؤسسة الرسالة ناشرون ، ط ١ (بيروت: ٢٠١٧م) ، ص ١٩ .

(٢) القفجاق، فرع من المغول كانوا يسكنون في المنطقة الواقعة بالقرب من بحر قزوين في حوض نهر الفولغا، عرفت الدولة باسم القفجاق أو الدولة الذهبية نسبة الى اللون الذهبي الذي اشتهرت به خيامهم ينظر: شبارو، عصام، تاريخ المشرق العربي الاسلامي ، دار الفكر اللبناني (بيروت: ١٩٩٩م)، ص ٢١٢ .

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ /١٤٠٥م) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن خليل شحاذة، مراجعة سهيل زكار، ط٢، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت: ١٩٨٨م)، ج ٥، ص ٣٧٣ .

اسكانهم في ثكنات عسكرية خاصة بهم في قلعة الروضة[١]، ولعل السبب في هذا الاهتمام هو لتفرق العناصر الكردية عنه وتركهم لخدمته ، فلم يبق معه إلا القليل ، فأراد أن يكونوا عماد جيشه ودولته[٢].

لذلك عُرِّفَتْ هذه الفرقة من المماليك بالبحرية التي توهم البعض في النسبة الى نهر النيل[٣]، بينما النسبة الصحيحة هي أنهم جاءوا من خلف البحار، ولأن هناك تسمية سابقة للمماليك كالغز البحرية التي كانت تابعة للفاطميين، والبحرية العادلية التابعة للسلطان العادل الايوبي[٤]. كذلك من التسميات التي أطلقت عليهم هي المماليك الصالحية أو المماليك النجمية[٥].

(١) قلعة الروضة، تسمى جزيرة الروضة تقع في الفسطاط ، وسميت بالجزيرة لان النيل اذا فاض احاط بها الماء وحال بينها وبين معظم الفسطاط .ينظر: ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدم العلائي (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة (بيروت: د. ت) ، ص١٠٩–١١٠ .

(٢) علاوي ، النشاط التجاري ، ص ٢٩ .

(٣) موير، السير وليم : تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ،ط١، الناشر مكتبة مدبولي ، (القاهرة : ١٩٩٥م) ، ص ٣٩ .

(٤) العبادي، احمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر (بيروت: ١٩٦٩م) ، ص ٩٧ ؛ الشيال ، جمال الدين : تاريخ مصر الاسلامية ، ط٢، الناشر دار المعارف ، (القاهرة : د . ت) ، ج ٢ ، ص ١١٠ ؛ علاوي ، النشاط التجاري ، ص ٣٠ .

(٥) النجمية (الصالحية) ، نسبة الى السلطان الايوبي الصالح نجم الدين أيوب، وعرفوا باسم البحرية لتميزها عما كان هناك من فرق بحرية اخرى منسوبة لمن سبقه . المنصوري بيرس (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م) ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد س. ريتشاردز ،ط١، المؤسسة الألمانية للبحث العلمي، (بيروت: ١٩٩٨م)، ص١١١؛ النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) ، نهاية الارب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (القاهرة: د. ت)، ج ٢٩، ص٢٧٨.

لقد قدر لهذه الفرقة من المماليك أن تشكل نواة قيام دولة المماليك وعاصمتها القاهرة بداية بعهد الملك عز الدين أيبك التركماني (٦٤٨-٦٥٥هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٧م)[١] بالتعاون مع زوجة السلطان الصالح أيوب شجر الدر[٢].

لذلك قامت دولة المماليك البحرية سنة ٦٤٨ – ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ –١٣٨٢م وتولى السلطنة فيها سبعة وعشرون سلطاناً ، كانت السلطنة الاولى على رأسها السلطانة شجر الدر، وآخر سلطان لها السلطان حاجي . تولى السلطنة بعد شجر الدر عز الدين آيبك (٦٤٨-٦٥٥هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٧م) وبعد مقتله تولى ابنه الصغير نور الدين الذي تلقب بالمنصور علي (٦٥٥-٦٥٧هـ/١٢٥٧-١٢٥٩م) فقد قام بتعيين سيف الدين قطز أتابكاً للعساكر، إلاّ أن قطز لم يكن وفياً للسلطان الجديد ، فاستغل موقعه وقوته بين أمراء المماليك البحرية ، فخلع المنصور بعد سنتين من توليه السلطنة ، فتولى السلطنة بعد أن حصل على تأييد معظم أمراء البحرية ، وتلقب بالمظفر سيف الدين قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٩-١٢٦٠م) ، وقد واجهت السلطان الجديد تحديات مصيرية متمثلة بالغزو المغولي ، الذي أسقط الخلافة العباسية واتجه نحو بلاد الشام مهدداً المماليك ، فكان رد قطز مسؤولاً وشجاعاً ، فجمع أمراء البحرية لمعرفة موقفهم من

---

(١) عز الدين أيبك ، عز الدين التركماني ، يعرف بالصالحي نسبة لنجم الدين الصالح أيوب ، وكان قد تزوج من شجر الدر بعد وفاة السلطان ، ويعدّ واحداً من امراء البحرية حيث تولى الحكم في تلك المدة الحرجة من انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك، وقد عرف عنه بالحزم والشجاعة، واجه العديد من المشاكل انتهت بقتله على يد الامراء البحرية بتدبير وتشجيع من لدن زوجته شجر الدر سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م. ينظر:ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/١١٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط١ مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة: ١٩٣٢م)، ج ٧، ص ٣١؛ عاشور ، سعيد عبد الفتاح، مصر في عصر دولة المماليك البحرية (القاهرة: ١٩٥٩م)، ص٧-١٥.

(٢) شجر الدر، لقبت بعصمة الدين، ملكة مصر، اصلها من جواري الملك الصالح ، قادت الجيش المملوكي في معاركه ضد الصليبيين عندما قامت بإخفاء نبأ موت زوجها السلطان الصالح ، وترأست سلطنة المماليك بضعة اشهر ، ثم قتلت على يد مماليك زوجها المعز آيبك . ابن عبد الظاهر ، محي الدين بن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبد الله (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) ، تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل ، ط١, مطبعة العربية للطباعة والنشر (القاهرة :١٩٦١م)، ص٣٩؛ ابو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) ، المختصر في أخبار البشر، ط١ المطبعة الحسينية (القاهرة: د. ت)، ج٣، ص٨٦ .

الخطر الذي يحدق بالبلاد، فقرروا المقاومة وعدم الاستسلام ، فترأس قطز الجيش ومعه مقدم البحرية وأحد قادة الجيش الرئيسين ، الأمير بيبرس البندقداري ، والتقى جيش المماليك بجيش المغول بقيادة نائب هولاكو كتبغا عند عين جالوت بالقرب من بيسان شمال فلسطين في الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ/الثالث من أيلول ١٢٦٠ م ، وكانت النتيجة تكبَّد الجيش المغولي خسائر، ورجوعهم حائبين ، ونجحوا في طردهم من بلاد الشام ، وقتل قائدهم كتبغا وفرار نائبه أيل – سبان للالتحاق بهولاكو في تبريز [١] .

بعد الانتصار على المغول ، عاد قطز إلى مصر ، وفي طريق عودته إلى مصر بالقرب من الصالحية اتفق مقدم البحرية بيبرس وجماعة من الأمراء على قتل السلطان المظفر قطز ، فاستغل بيبرس الوضع ، وتولى السلطنة وتلقب بالظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م)[٢] . لذلك يعد السلطان بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك البحرية ، فهو واضع أسس النظام الاداري ، واستطاع من القضاء على التمردات والاخطار الداخلية في مصر وبلاد الشام ، ولعل أعظم انجاز له هو احياءه للخلافة العباسية ، فعندما سمع بوصول أحد أبناء البيت العباسي الى دمشق ، أرسل يستدعيه الى مصر فاستقبله بحفاوة بالغة ، وعقد له مجلسا دعا فيه القضاة والعلماء ليشهدوا صحة نسب الامام ، فبايعه الظاهر بيبرس ولقب الخليفة الجديد بلقب المستنصر بالله وذلك في الثالث من شهر رجب سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) ، وانعم الخليفة الجديد على بيبرس بلقب **((قسيم أمير المؤمنين))**[٣]. لذلك نجح بيبرس في تدعيم سلطانه بتفويض من السلطة الروحية المتمثلة بالخلافة العباسية [٤] .

---

(١) أبو شامة المقدسي ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٩٧هـ/١٢٦٦م): الذيل على الروضتين، طبع بعنوان تراجم القرنين السادس والسابع، نشر عزت العطار، ط٢، دار الجيل (بيروت: ١٩٧٤م)، ص ٢٠٣-٢٠٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٣١.

(٢) المقريزي, تقي الدين احمد بن علي (ت: ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، السلوك في معرفة دول الملوك ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ، ط١،ج١، ق٢, دار الكتب العلمية (بيروت: ١٩٩٧م) ، ص٤٣٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ١٠٣.

(٣) القلقشندي, ابو العباس احمد بن علي (ت: ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) , صبح الاعشى في صناعة الانشا المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (بيروت: د.ت) ، ج٧ ، ص٦٥٠ .

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في مسيرة الملك المنصور، ص١١٠ .

ولما دنا أجله عهد بيبرس لابنه السعيد بالسلطنة ، فتولى السلطنة متخذاً لقب الملك السعيد (٦٧٦-٦٧٨هـ/١٢٧٧-١٢٧٩م) بعد تجديد الأمراء والقضاة والعلماء البيعة له ، ودعا له الخطباء في الجوامع [١]. وعلى الرغم من ذلك إلا أن سياسته لم تكن لتنجح مع أمراء السلطنة الكبار كقلاوون وسنقر الأشقر الذين دعوا إلى اختيار أقوى الأمراء مرشحاً للسلطنة ، فأجبروه على خلع نفسه مقابل إعطاءه مدينة الكرك [٢] ؛ فتولى أخوه بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس السلطنة بشكل مؤقت ، فقد كان عمره لا يزيد عن السبع سنوات ، ولقب بالملك العادل (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) الامر الذي استغله الأمير قلاوون اتابك العساكر بالاتفاق مع الأمراء ، فقاموا بخلع سلامش ونفيه إلى الكرك ، فتولى قلاوون السلطنة واتخذ لقب المنصور سيف الدين (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) [٣] .

سار السلطان المنصور قلاوون في تسيير أمور الدولة على سياسة من سبقه كالسلطان بيبرس لاسيما سياسته تجاه الصليبيين، وذلك من خلال مواصلته شن الحملات العسكرية ضدهم، وتقويض دعائمهم في بلاد الشام[٤].

وهذا الحال دفع السلطان الجديد للتفرد بالسلطة بين المماليك البحرية ، حتى دامت السلطنة في ذريته أربعة أجيال إلى نهاية دولة المماليك البحرية [٥] . لذلك اصطلح الكثير من المؤرخين المحدثين تسمية هذه المرحلة من تاريخ دولة المماليك بعصر السلطان قلاوون وابنائه او بيت قلاوون ، وذلك للأهمية والدور الذي أداه في تاريخ دولة سلاطين المماليك ، فقد استطاع الاحتفاظ بالسلطنة لأبنائه مدة طويلة دامت حوالي قرن من الزمن من (٦٧٨هـ-٧٨٤م) وهذا يمثل حالة فريدة في تاريخ دولة المماليك[٦] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ،ج١، ق٢، ص٦٤٢ .

(٢) أبو الفدا، المختصر، ج٤ ، ص١٢.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٦٥٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٢٧١ -٢٧٢، ص٢٨٦.

(٤) عاشور، سعيد عبدالفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام ط٢،دار النهضة العربية،(القاهرة:١٩٧٦م) ، ص٦٨ .

(٥) حتي، فيليب، تاريخ العرب، ط٢, (بيروت: ١٩٦١م), ص٧٦٩.

(٦) عاشور، الايوبيون والمماليك، ص١٨٠؛ سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي الناشر مكتبة الآداب، مطبعة المتوكل (مصر: ١٩٤٧م) ، ج١، ق٣، ص٣٥.

ورث السلطنة بعد وفاة قلاوون ابنه الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) الذي لم يكن بكفاءة ومقدرة أبيه ، فضلاً عن عدم سيطرته على التحكم بأمراء المماليك السلطانية[١]. وعلى الرغم من بعض المحاولات في بسط النفوذ داخلياً ، والتوجه نحو طرد بقايا الصليبيين في عكا والساحل بنجاح ، بشكل نهائي سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[٢]، إلا أنه دفع حياته ثمناً لتطلعات بعض الأمراء في الاستحواذ على السلطنة ، وذلك لعدم إيمانهم بمبدأ الوراثة في الحكم ، فلما توافرت لهم الفرصة بخروجه للصيد تمكنوا من قتله سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م[٣].

اتفق الامراء المماليك بعد ذلك على مبايعة محمد بن قلاوون وتلقب بالناصر (٦٩٣-٦٩٤هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م) الذي تولى السلطنة لمرات ثلاثة ، وهو بذلك يمثل أطول عهود السلطنة بين سلاطين المماليك ، فاستغل الامراء صغر سنه فأداروا الدولة بالنيابة عنه كزين الدين كتبغا نائب السلطنة الذي استطاع من تصفية خصمه الوزير علم الدين سنجر، ونجح بعزل السلطان الجديد وإعلان نفسه سلطاناً متخذاً لقب العادل (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م) ، وقام بتعيين حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة[٤].

وعندما عاد كتبغا من قتال المغول في بلاد الشام ، قام لاجين بتدبير خطة لقتله ، التي نتجت عنها هروب كتبغا ، ومبايعة الأمراء للاجين بالسلطنة وتلقب بالمنصور لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٧-١٢٩٩م) [٥] .

واجه لاجين منذ توليه السلطنة تحديات منها ، خطر كتبغا في الشام بمقر نيابة السلطنة دمشق ، وكذلك تواجُد الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة ، لذلك عمل على إبعاد الناصر الى

---

(١) الكتبي ، محمد بن شاكر بن احمد (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م): فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر (بيروت: ١٩٧٣م) ، ج١ ، ص٣٠٠.

(٢) ابن كثير ، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) ، البداية والنهاية ،ط١، دار أبي حيان، (القاهرة: ١٩٩٦م) ، ج١٣ ، ص ٣٧٧ -٣٧٨ .

(٣) أبو الفدا ، المختصر ، ج٤ ، ص-ص٢٩-٣٠ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٨، ص١٦-١٩ .

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٩٦-٢٠٠؛ ابن اياس، محمد بن احمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة: ١٩٦٣م)، ج١، ص١٣٢.

(٥) ابو الفدا ، المختصر ، ج٤ ، ص٣٤ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص-ص٨٢٢-٨٢٣.

الكرك ، بعد أن تعهد له بإعادته إلى السلطنة عند بلوغه سن الرشد [١] . وفي الوقت نفسه بقي مماليك السلطان الأشرف خليل يتحينون الفرص للثأر لسلطانهم من لاجين فنجحوا بزعامة الأمير كرجي في قتله بالتعاون مع منكوتمر سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م[٢] . واتفقوا على استدعاء الناصر محمد بن قلاوون من الكرك وتعيينه سلطاناً للمماليك للمرة الثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٩-١٣٠٨م) ، وتمَّ تعيين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة ، والأمير بيبرس الجاشنكير استاداراً [٣] ، لكن الاميرين استغلا صغر سن السلطان ، واستبدا بأمور السلطنة ، وأجبراه على اعتزال الحكم سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م[٤] .

لذلك بايع الأمراء بيبرس الجاشنكير بالسلطنة وتلقب بالمظفر (٧٠٨-٧٠٩هـ/١٣٠٨-١٣٠٩م) الذي اختار سلار نائباً للسلطنة ، لكن الناصر محمد، استغل اضطراب الاوضاع وقام بالاتصال بأهل الشام طالباً نصرتهم ، ولما علم بيبرس باتصالات الناصر لجأ الى لغة التهديد، فطالب الناصر بإعادة أمواله وممتلكاته ، وإلا جرى عليه النفي [٥] .

فكتب الناصر لبيبرس يسترضيه ، وفي الوقت نفسه قام بمكاتبة أهل الشام يشكو إليهم سوء حاله وتهديد بيبرس له [٦] ، فانضم إلى معسكره عدد من أمراء الشام ، واتخذ القرار بالمسير الى القاهرة ، فقصد دمشق بداية أمره حيث تم استقباله استقبالاً كبيراً ، وقدَّم له أمراء الشام فروض الطاعة والولاء [٧] . وعند سماع بيبرس هذه الاخبار ما كان منه إلا أن يتنازل عن عرش

(١) عاشور ، العصر المماليكي ، ص١١٠.

(٢) أبو الفدا ، المختصر ، ج٤ ، ص٣٧ ، ص٤٠.

(٣) الاستادار، كلمة مركبة من لفظين ، الاول يعني الاخذ ، والثاني معناه الممسك ، أي المتولي ، وهي كلمة فارسية. وهي عبارة عن وظيفة تكون لمن يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه ، وتمتثل أوامره فيه.ينظر: القلقشندي .

(٤) أبو الفدا، المختصر، ج٤ ، ص٥٤-٥٥؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٧٩-١٨٠.

(٥) ابو الفدا، المختصر ، ج٤ , ص ٥٦-٥٧ .

(٦) ابن اياس ، بدائع الزهور، ج١، ص ١٥٢ .

(٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص٢٦٥ .

السلطنة ، فاعتلى الناصر محمد بن قلاوون عرش السلطنة للمرة الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م) ، واستمر في الحكم إلى أن توفي [١] .

وفي ظل سلطنة الناصر قلاوون في المرة الثالثة فقد شهدت أوضاع الدولة استقراراً نسبياً ملحوظاً ، وسجلت للناصر إنجازات مشهودة في إدارة السلطنة شملت دواوينها وتنظيماتها المالية، وحُدِّدت مهام بعض الوظائف ، فضلاً عن ازدهار التجارة داخلياً وخارجياً [٢] .

وبوفاة السلطان الناصر محمد قلاوون سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م) يكون قد دخلت دولة المماليك البحرية في حقبة جديدة في تاريخها أطلق عليها بـ(عصر ابناء الناصر محمد واحفاده) والتي استمرت حتى سقوط دولة المماليك البحرية سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) [٣].

توالى على حكم دولة المماليك البحرية من أبناء الناصر محمد ثمانية سلاطين حكموا لمدة اثنان وعشرين سنة من (٧٤١-٧٦٣هـ/١٣٤٠-١٣٦١م) ، وبذلك يكون متوسط حكم الواحد منهم حوالي عامين ونصف ، الامر الذي يشير الى حالة عدم الاستقرار والضعف الذي عاشته البلاد في ذلك العصر ، وكان اول السلاطين المتأخرين السلطان سيف الدين ابو بكر محمد الذي تلقب بالمنصور ، وآخرهم السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد الذي انتهى حكمه عام (٧٦٣هـ/١٣٦١م) [٤].

ثانياً . مظاهر الحياة العلمية: +٩٨

مما لا شك فيه أن العصر المملوكي شهد نهضة علمية ، ونشاطاً علمياً قل نظيره في مختلف المجالات، لاسيما بعد احتلال المغول لبغداد وتدمير إرثها الحضاري والفكري الذي خدم

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٨, ص٢٦٥ .

(٢) عاشور، العصر المماليكي ، ص ١٢٠ .

(٣) الشجاعي، شمس الدين، (ت٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) ، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي واولاده، تحقيق بربارة شيفر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه (القاهرة: ١٩٧٨م)، ص١٠٨-١٠٩.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٤٠٠؛ عاشور ، الايوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٢٥٤.

الإنسانية لقرون عديدة، فكانت القاهرة مركزاً فكرياً بعد ضموره في بغداد ، فأصبحت كما قيل **((ملاذ الحضارة العربية وموئل فكرها وعلومها وآدابها وانتدبت نفسها لهذه المهمة))**[١].

فضلاً عن احتكار سلاطين المماليك للسياسة كان سبباً في أن يجعل العلماء يتفرغون للعلم ، فقد نبغ العديد منهم في شتى العلوم والمعارف فأثروا الثقافة العربية الاسلامية ، وكذلك التراث الضخم الذي لم يعرف له مثيل ، خلّفه علماء العصر المملوكي في مصنفات كثيرة تعد أساس البحث العلمي[٢] .

ولم يأل سلاطين المماليك في تشجيع العلم والعلماء ، لذلك قاموا بتقريب العلماء فعنوا بالمساجد والمدارس، فانتشرت المدارس في أرجاء البلاد ، ولعل في وصف الرحالة ابن بطوطة ما يغني عن السؤال عندما ذكر قائلاً[٣] **((وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها))**.

لذلك فإنَّ سلاطين المماليك لم يكونوا بعيدين عن ذلك النشاط العلمي الذي ساد مصر في عصرهم ، فقد عرف عن السلطان الظاهر بيبرس ، حبه للعلم ورعايته للعلماء ، وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً وكان يردد عبارته **((سماع التاريخ أعظم من التجارب))** [٤]. وكان الناصر محمد بن قلاوون ، محباً للآداب واللغة ، عارفاً بأساليب العربية وملماً بالقواعد اللغوية والنحوية ، فقد ذكرت المصادر انه كان ينقد ما كان يعرض عليه من المراسيم ويصلحها ، ولا يُعلم على مكتوب حتى يقرأه [٥] .

وكذلك الملك الصالح إسماعيل سار على منوال والده الناصر ، فقد ذكرت المصادر انه كان ديناً محباً للعلم متمسكاً بالأحكام الشرعية[٦] .

---

(١) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ص٨.

(٢) علاوي، عمار مرضي، دراسات في التاريخ المملوكي، ط ١، دار زهران للنشر والتوزيع (عمان: ٢٠١٦م) ، ص ٦١.

(٣) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت ٧٧٩هـ/١٧٧م) ، رحلة ابن بطوطة، دار صادر (بيروت: ١٩٦٠)، ص٣٧.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٨٢ .

(٥) المقريزي ، السلوك، ج٢ ، ص٢٤٧ .

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج١٠ ، ص٧٨ .

وشهدت مصر كثرة المؤلفات العديدة في شتى المعارف حتى لم يخل علم من إنجازاتهم، حتى وصفت **((الثمرة الخالدة والأثر الباقي والوصلة الصالحة بين الماضي والحاضر))**[١].

وجاء وصف السيوطي شاملاً للحركة الفكرية في عصر المماليك قائلاً[٢] **((واعلم أن مصر من حين صارت دار خلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها وعلت السنة وعفت البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ومحط رجال الفضلاء))** . لذلك نجد أن العلماء والمفكرين لما سقطت الخلافة العباسية ، واضطربت الاوضاع في بغداد العلم والعلماء ، كانت مصر وبلاد الشام الملاذ الامن بالنسبة لهم ، فسأهموا في بناء الحركة العلمية من تدريس ومؤلفات وغيرها، فكان هناك ترابطاً بين مراكز الحركة الفكرية ، بل أن العلماء لم يكونوا منعزلين عن ما يجري من هجمات صليبية ومغولية على العالم الاسلامي ، فكان لهم أثراً في توحيد المسلمين ، وتحولوا في كثير من الأمور إلى قيادة الناس وذلك عن طريق تصحيح الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية حين تنحرف عن المسار الصحيح[٣] .

ولعل في مقدمة المؤلفات التاريخية التي ملأت الافاق في ذلك العصر ، وعلى سبيل المثال لا الحصر كتاب سيرة الظاهر بيبرس وسيرة المنصور قلاوون للمؤرخ ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ /١٢٩٢م)[٤]، وكذلك زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة لبيبرس المنصوري (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤ م)، وتاريخ الإسلام والعبر للذهبي (ت ٧٤٨هـ /١٣٤٧ م)، وكتاب تاريخ الملوك والدول لابن الفرات (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤ م)[٥].

---

(١) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٣، ص٨٩.

(٢) جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١ مطبعة عيسى البابي الحلبي (القاهرة: ١٩٦٧م) ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٣) حمزة ، عبد اللطيف ، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول ، ط ٨ ، دار الفكر العربي ، (القاهرة : ١٩٦٨م) ، ص٦٨ ، ٨٣ .

(٤) بروكلمان، كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين (بيروت: ١٩٦٨م) ، ج٣، ص٢٣٣.

(٥) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ،ط١، دار الجيل ، (بيروت : ١٩٩٢ م) ، ج٨، ص٥١.

كذلك برع المؤرخون في ترجمة الشخصيات والاعلام ، فجاءت كتب التراجم متنوعة على مختلف انتماءاتها ، منها النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد لابن أبي الفضائل (ت ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م) ووفيات الأعيان لابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) [١].

وفيما يتعلق الامر بالمؤلفات التي تخص العلوم الدينية ، فكانت هي الاخرى وفيرة ومتنوعة ، منها جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي القرآن الكريم للقرطبي (ت ٦٧١هـ /١٢٧٢ م)، والمصباح المنير في علم التفسير للدريني (ت ٦٩٤هـ /١٢٩٤ م)، والانتصار للزمخشري[٢].

وفي مجال المؤلفات الحديثية فكانت متنوعة ، منها على سبيل المثال شرح البخاري، تصنيف أحاديث الإمام الشافعي لعز الدين بن جماعة (ت ٧٦٧هـ /١٣٦٥ م)[٣].

وكانت العناية بالفقه الاسلامي كبيرة، لحفظ تراث الامة، ومعرفة مسائل الشريعة الغراء، ففي الفقه الحنفي كانت المؤلفات ، زوائد الهداية لابن نصر (ت ٦٩٥هـ /١٢٩٥م) وشرح الهداية للبابرتي[٤].

وفي الفقه المالكي الذخيرة في مذهب مالك لابن إدريس (ت ٦٨٢هـ /١٢٨٣ م)[٥]، وشرح المدونة للزواوي (ت ٧٤٣هـ /١٣٤٢ م)[٦]. وفي الفقه الشافعي أحكام الأحكام لابن دقيق (ت ٧٠٢هـ /١٣٠٢ م)، والكفاية لابن الرفعة (ت ٧١٠هـ /١٣١٠ م)[٧]. أما الفقه الحنبلي فبرز منهم مؤلفات منهم: الحراني (ت ٦٩٥هـ /١٢٩٥ م)، والمقدسي (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦ م)[٨].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٠١.

(٢) ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ /١٤٤٨ م) ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، تحقيق: محمد سيد جاد الحق ، (القاهرة: ١٩٧٥م) ، ج٣، ص١٣.

(٣) ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي (ت١٠٨٩هـ /١٦٧٨ م) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الفكر للطباعة والنشر (بيروت: د. ت) ، ج٦، ص٢٠٨.

(٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق حسن حبشي (القاهرة:١٩٦٩م) ، ج١، ص٢٩٨.

(٥) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي تحقيق يوسف نجاشي مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة:١٩٥٦م)، ج١، ص١١٥.

(٦) السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٢.

(٧) ابن العماد ، شذرات الذهب،ج٦،ص٢٢.

(٨) المصدر نفسه ،ج٥ ، ص٤٢٨.

كذلك كانت للغة العربية مكانتها في مؤلفاتهم ، من ذلك معجم لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)[١]. وفي مجال المؤلفات الجغرافية ، فظهرت عندهم موسوعاتٌ ومصنفاتٌ ، مثل موسوعة مسالك الأبصار للعمري (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، والانتصار لابن دقماق (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م)[٢].

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٥، ص٣١.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٣٣.

المبحث الثاني

طبيعة المجتمع المملوكي وأثرها في الحياة الاجتماعية للعلماء

أولاً . التركيبة المجتمعية في العصر المملوكي :

وصف المجتمع العربي في العصر المملوكي بأنه مجتمع منعزل عن السلاطين وفعالياتهم السياسية ، الذين سكنوا في أماكن خاصة بهم بعيداً عن بقية شرائح المجتمع، مع قيامهم بتقريب العلماء والفقهاء والمفكرين وغيرهم، وذلك لحاجتهم الماسة فيمن يسند حكمهم، وقوة في الرأي العام من جانبهم، فضلاً عن اكتساب الشرعية في حكمهم(١) .

وعند الحديث عن التركيبة الاجتماعية في العصر المملوكي، نجد أنه من المستحسن استعراضها وبيان أثرها على حياة العلماء ومكانتهم في ذلك المجتمع .

١. **التركيبة السكانية:** فبالنسبة للتركيبة السكانية التي تعني ما استوعبته بيئة كلاً من مصر وبلاد الشام من جنسيات ، فتضمنت كلاً من العرب الذين شكلوا النسبة الاكبر سواء في مصر أو بلاد الشام ؛ ويليهم التركمان، ثم الاكراد(٢) . ويذكر أن العرب منذ قبل الاسلام استقروا في مصر وتوزعوا في مدنها ، فالمقريزي ذكر ذلك قائلاً(٣) ((إن هجرات العرب الى مصر كانت منذ قديم الزمان وقبل الإسلام، إذْ كانت الهجرات أمراً سهلاً عن طريق سيناء ، فاستقر قسم منهم في منطقة الوجه البحري، على حين أن قسماً آخر استقر في منطقة الصعيد الأعلى)).

فعلى الرغم من أن العرب في وقت ما فقدوا العديد من الامتيازات، والدور الذي اضطلعوا به، مقابل تزايد أعداد الاتراك ونفوذهم لاسيما في مصر، إلا أن ذلك لم يؤثر على مكانة وأثر العرب في كلاً من مصر وبلاد الشام(٤) .

---

(١) عاشور، العصر المماليكي ، ص ٣٢١ .

(٢) ابن شاهين الظاهري ، غرس الدين بن خليل (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م) ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راوايس، المطبعة الجمهورية (باريس: ١٨٩٢م)، ص ١٠٥ .

(٣) البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين ، ط١، عالم الكتب (القاهرة: ١٩٦١م) ، ص٩٢ .

(٤) عاشور: دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية العربية ، دار السلاسل (الكويت : ١٩٨٦م)، ص٢٥٩ .

فالعرب أطلق عليهم في ذلك العصر، أي العصر المملوكي بالعربان الذين سكنوا في أطراف دولة المماليك في الصحراء المحيطة بمصر ، وقسم منها سكنت في ضفاف نهر النيل، وكانت هذه القبائل على خلاف مع دولة المماليك بحسب وجهة نظرهم بأحقيتهم في تسنم السلطة(١). واستقطبت بلاد الشام أعداداً كبيرة من الهجرات العربية قادمة من شبه الجزيرة العربية، لاسيما إذا ما عرفنا أن بلاد الشام كانت مشتهرة بنشاطها التجاري الذي كان أحد عوامل الهجرة، وكان ذلك سبباً في استقرار العرب على ساحل البحر المتوسط(٢). كذلك استقر الحضر من العرب في المدن والقرى الشامية ، وشكلوا نسبة كبيرة فيها، إذ قدرت القرى في طرابلس بثلاثة آلاف، وفي صفد ألف ومائتي قرية(٣) .

أما الاتراك فجاءوا في المرتبة الثانية بعد العرب ، وهم شعب يطلق على سكان آسيا الوسطى ، وصفت بأنها قبائل بدوية، تتصف بالخشونة والقسوة مع شجاعتهم وبأسهم في القتال، وقد تدفقت تلك القبائل الى العالم الاسلامي في العصور الوسطى(٤). وقد اشتهر الاتراك بالجانب العسكري في معظم الدول التي ارتبطوا بها ولكفاءتهم في هذا الجانب، فقد كثر استخدامهم منذ الخلافة العباسية عندما استقدمهم الخليفة المعتصم بالله، وزادت أعدادهم في سلطنة الصالح نجم الدين أيوب، حتى أصبح الاتراك مكوناً أساسياً في المجتمع المصري ، بل وأثروا في الحياة الاجتماعية من خلال المفردات التركية في الزي والمأكل(٥).

وهؤلاء الاتراك لم يكونوا جنساً واحداً بل فيهم القفجاقي والجركسي والمغولي والاسباني والرومي(٦)، فمثلاً السلطان قطز كان خوارزمي الاصل، والسلطان كتبغا مغولي الاصل،

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ، ق٢ ، ص٣٢ .

(٢) ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الاندلسي (ت ٦١٤هـ/١١٤٥م) ، رحلة ابن جبير المسماة تذكرة الاخبار عن اتفاقات الاسفار، دار صادر (بيروت : ١٩٦٤م)، ص٢٦٠.

(٣) ابن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك ، ص ٤٤ وما بعدها .

(٤) ل. أ.سيمينوفا ، تاريخ مصر الفاطمية, ترجمة وتحقيق حسن بيومي, المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة: ٢٠٠١م), ص١٩٨.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٧، ص١٦.

(٦) ماجد، عبد المنعم، التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الانجلو المصرية (القاهرة: ١٩٨٨م) ، ص٢٦٥.

واستطاعوا من أن يسيطروا على أوضاع الدولة بعد نهاية الايوبيين، وأصبحوا هم عماد الدولة لكثرة أعدادهم وتغلغلهم في مفاصل الدولة ، حتى حكموا البلاد وتلقبوا بألقاب السلطان والملك(١).

بل أن المماليك عملوا جاهدين في سبيل توطينهم في سواحل بلاد الشام لاسيما البلاد التي استعادوها من الصليبيين ، فأقطعوها للأتراك(٢).

وهذه الشرائح كونت وحدة اجتماعية متماسكة في البيئة المملوكية . وهناك فئات أخرى في المجتمع الاسلامي ، لكن هذه الفئات هي الغالبية في ذلك المجتمع ، لذلك اقتصر الذكر عليها دون غيرها .

٢. التركيبة الدينية: يقصد بالتركيبة الدينية، أي الديانات التي كانت سائدة في المجتمع المملوكي وأثرها في الوحدة المجتمعية بعيداً عن النعرات والخلافات .

فقد مثل المجتمع المصري والشامي تنوعاً دينياً ومذهبياً، عاشت في كنفه الديانات والمذاهب والاقليات. وأوجدت تركيبة دينية سادها التسامح والتعايش المجتمعي في تلك الحقبة.

وكان المسلمون يشكلون أغلبية مطلقة في كلاً من مصر وبلاد الشام، وانتشروا بمذاهبها المعروفة حسب المكانة والحظوة، فكان في المقدمة المذهب الشافعي يليه المذهب الحنفي ، ثم المذهب الحنبلي، ثم المالكي(٣) . بل أن المذاهب الاسلامية كان لها حق تعيين قاضي القضاة في الدولة ليفتي ويحكم على مذهبه ، فكانت الدولة المملوكية فيها أربعة قضاة يمثلون المذاهب الاربعة، وبذلك انتشرت المذاهب وتوسعت(٤) .

والى جانب المسلمين ومذاهبهم، كانت هناك الاقليات كالنصارى واليهود ، الذين احتفظوا بحياتهم الاجتماعية الخاصة في دورهم وكنائسهم وأديرتهم ، حتى قُدَّرَ عدد الاديرة في العصر

---

(١) باشا، حسن، الالقاب الاسلامية، الدار الفنية للنشر والتوزيع (القاهرة : ١٩٨٩م) ، ص ٨٨ وما بعدها.

(٢) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر (الرياض: ١٩٧٦م) ، ص٢٩٣.

(٣) ابن الشحنة ، فهد بن الوليد (ت ٨٨٣هـ/١٤٧٨م) ، الدر المنتخب من تاريخ حلب (دمشق: ١٩٨٤م)، ص٢٤٢؛ ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي الصالحي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م) ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق خليل عمران المنصور ، دار الكتب العلمية (بيروت: ١٩٩٨م)، ج١، ص١٥٣.

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١١، ص١٧٤ .

المملوكي بثمان وخمسون ديراً للنصارى[١]. وكان يطلق على رئيسهم الجاثليق وأحياناً البطريرك، وهو عندهم بمثابة خليفة المسيح (عليه السلام) والقائم بأمور دينهم[٢].

ومثل اليهود مكوناً مجتمعياً لكن بدرجة أقل من النصارى ، بينما جاءت حياة اليهود باحترافهم التجارة مع تأدية طقوسهم الدينية ، ولهم رئيسهم المسمى الحاخام وهو مسؤول عن إدارة شؤونهم الدينية والاجتماعية[٣]. وهناك رأس الجالوت الذي له حق الإشراف على الطوائف الدينية اليهودية، والقضاء بينهم[٤].

ثانياً . المنزلة الاجتماعية للعلماء :

١. التصنيف المجتمعي:

يعد العلماء أحد الشرائح الاجتماعية التي احتلت مكانة ومنزلة اجتماعية في المجتمع المملوكي ، وبحسب التقسيم الذي أورده المقريزي[٥] فإن العلماء يقعون ضمن الترتيب الخامس عندما ذكر تلك الفئات **((أن الناس بإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام : القسم الاول أهل الدولة ، والقسم الثاني أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية ، والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم أصحاب البز ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة ، والقسم الرابع أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث، سكان القرى والريف، والقسم الخامس الفقراء، وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ، والقسم السادس أرباب الصنائع والاجراء أصحاب المهن ، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤّال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم))**. وهذا النص يدلل على أن العلماء كانوا في الترتيب الخامس من حيث المستوى الاجتماعي، ولا يعني بحال من الاحوال أنهم كانوا أدنى منزلة اجتماعية من غيرهم . ومن الجدير بالذكر أن العلماء في العصر

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٤٠٥.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١٣، ص٢٧٣ .

(٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٣٤٩ .

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١١ ، ص ٣٨٥ .

(٥) إغاثة الامة بكشف الغمة، تحقيق : كرم حلمي فرحات ،ط١، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، (القاهرة : ٢٠٠٧م) ، ص ١٤٥ .

المملوكي كان يطلق عليهم لقب أهل العمامة[١] وقد يكون ذلك تمييزاً لهم عن غيرهم من فئات المجتمع.

وقد تمتع العلماء بمكانة مرموقة عند سلاطين المماليك في ضوء المواقف التي دلَّتْ على أهليتهم ورسوخهم في العلم، مع عدم الانحياز للحاكم على حساب الحق ، فكان السلاطين يولون لهم أهمية خاصة ليجعلوهم وساطة بينهم وبين المجتمع، ولكونهم أصحاب الولاية الشرعية والروحية ، لذا قيل أن تثبيت الحكم المملوكي جاء من خلال احترام العلماء وتقريبهم ، فوصفوا **((ويرون أن بهم عرفوا دين الاسلام وفي بركتهم يعيشون، وحسب أعظمهم قدراً أن يقبل يد الفقيه والقاضي))**[٢]. ولربما كانت عملية استمالة العلماء والتقرب منهم، بل وحتى اعطاءهم مكانة مرموقة- على الرغم من أحقيتهم ووضعهم الطبيعي فيها- سبباً في الاستمرار في الحكم **((والاسباب التي جعلت السلاطنة يتعاقبون على الحكم فكان أولها الفضل والكرم والاحسان الى أهل العلم))**[٣].

ومن الحوادث التي دلَّتْ على مكانة العلماء ما حصل مع السلطان الظاهر بيبرس مع الشيخ العز بن عبد السلام[٤] الملقب بسلطان العلماء ، الذي لم يجرؤ على مبايعة الخليفة العباسي المستنصر في مصر (٦٥٩- ٦٦١ هـ/١٢٦٠- ١٢٦١م) والخليفة الحاكم (٦٦٢-٧٠١ هـ / ١٢٦٢- ١٣٠١م) إلّا بعد أن يتقدمه العز للمبايعة ، بل تعدت هيبة العالم حتى في وفاته ،

(١) ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر بأبناء العمر، ج٢، ص٢٧٧.

(٢) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٥، ص ١٢٤.

(٣) العيني ، محمود بن أحمد بن موسى (ت ٨٥٥ هـ /١٤٥١م) ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مراجعة محمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربي لطباعة والنشر، ط١, (القاهرة : ١٩٩٨م)، ص١٩٧.

(٤) العز بن عبد السلام ، هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن عز الدين أبو محمد السلمي الدمشقي الشافعي ، قرأ الاصول والعربية ، ودرّس وأفتى وصنف وبرع في المذهب الشافعي حتى بلغ رتبة الاجتهاد فرحل اليه طلبة العلم ، كان ناسكاً ورعاً آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر ، تولى قضاء مصر لمدة ، توفي سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م .ينظر: الصفدي ، صلاح الدين خليل بن آيبك (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م) ، الوافي بالوفيات ، تحقيق: أحمد الارناؤوط وتركي مصطفى ،ط١، دار احياء التراث العربي ، (بيروت: ٢٠٠٠ م) ، ج١٨ ، ص٣١٨ .

فلما حضرت جنازة العز في موكب مهيب قال حينها السلطان بيبرس **((اليوم استقر أمري في الملك، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس أخرجوا عليه لانتزع الملك مني))** [١] .

وفي سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م جلس السلطان الظاهر بيبرس بدار العدل ، وقد رفعت له ورقة مختومة من خادم أسود تتضمن الشكوى من شيخ الحنابلة شمس الدين ، وادعى فيها أنه يبغض السلطان ويتمنى زوال دولته ، فأراد السلطان التأكد من الشيخ فبعث اليه متسائلاً فرد عليه الشيخ **((فأقسم أنه ما جري منه شيء ، وانما هذا الخادم طردته من خدمتي . فقال السلطان : ولو شتمتني أنت في حل، وأمر فضرب الخادم مائة عصا))**[٢] .

كذلك السلطان المنصور لاجين الذي كان معتاداً أن تباس الارض عنده ، لكن لما دخل عليه الشيخ فتح الدين بن سيد الناس[٣] منعه من تقبيل الارض قائلاً له **((أهل العلم منزهون عن هذا ، وأجلسه عنده على المقعد))**[٤].

كذلك عندما قام نائب السلطنة في مصر سيف الدين منكوتمر[٥] بحيلة للاستيلاء على أموال التاجر الذي توفى ولم يترك وريثاً، فجاء بشخص ادعى أنه أخاه، فلم يقبل العالم ابن دقيق العيد[٦] الذي كان قاضي القضاة، ولما أَلحَّ عليه، استقال من القضاة، الامر الذي أثار غضب السلطان حسام الدين لاجين على منكوتمر ، وقام بإرضاء ابن دقيق العيد[٧].

---

(١) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩م) ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناحي، ط١ (القاهرة : ١٩٦٤م)، ج٨ ، ص٢١٥ .

(٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣ .

(٣) فتح الدين بن سيد الناس، فتح الدين محمد بن محمد بن أحمد ، الامام العلامة الحافظ المحدث الاديب الناظم ، وهو من بيت رئاسة وعلم ، لديه العديد من الكتب، درس على يد مشايخ عصره جميع العلوم، توفي سنة ٧٣٤هـ-١٣٣٤م .ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١ ، ص٢٢٦ .

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٠٨ .

(٥) منكوتمر، الامير سيف الدين الحسامي التركي، نائب السلطنة، كان مسرفا في استئصال كبار الامراء، وفيه جهل، له مدرسة في القاهرة، قتل سنة ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٨ م بعد مقتل سلطانه .ينظر: الذهبي، محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط١ (بيروت: ١٩٩٤م)، ج٥٢، ص٣٦٨.

(٦) ابن دقيق العيد، تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن مطيع ، الامام العلامة شيخ الاسلام تقي الدين بن دقيق العيد القشيري المنفلوطي المضري المالكي الشافعي ، أحد الاعلام وقاضي القضاة ، كان عارفا بمذهبي مالك والشافعي ، له التصانيف الكثيرة مع ترأسه للقضاء ، وكان مهاباً عند السلاطين والامراء ، توفي سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م . ينظر:الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٤ ، ص ١٣٨ وما بعدها .

(٧) المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

وتكرر الحال في مكانة وحظوة العلماء بحظرة السلاطين ، ففي سلطنة الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩. ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ ـ ١٣٤٠م) قدم عليه وهو في مدينة غزة العالم صدر الدين بن الوكيل، فأراد الدخول عليه ، فقال له الحاجب **((بس الارض ، فامتنع وقال : مثلي لا يبوس الارض إلّا لله، قال : فما شككت أن دمه يسفك ...فلما أصبحنا رأيت ابن الوكيل يساير السلطان))** [١] . ونختم هذه الفقرة بنص ابن شاهين الظاهري[٢] في مقولته عن مكانة العلماء **((وفضائل العلماء كثيرة لا تحصى ومزاياهم عديدة لا يدرك أمرها ولا يستقضى))**. وهذه النصوص والشواهد التي لامست مكانة العلماء تدل على علو شأنهم وأهمية كلمتهم عند السلاطين والامراء ، الامر الذي يشير الى فعليتهم ومدى تأثيرهم في المجتمع .

٢. ألقاب العلماء:

تمتع العلماء في العصر المملوكي بجملة من الالقاب ذات المكانة والحظوة ، فقد كانت لهم خاصية الالقاب المميزة والحصرية لهم ، التي أضيفت لهم في ذلك العصر ، وهي مرتبطة بأسم العالم الشخصي ، فمثلاً أضيف لقب شمس الدين من كان اسمه محمد ، وسراج الدين من كان اسمه عمر، وشهاب الدين من كان اسمه أحمد ، وجمال الدين من كان اسمه يوسف ، وبرهان الدين من كان اسمه ابراهيم [٣] . لذلك كانت الالقاب من مظاهر تقدير العلماء ، بحيث إذا نودي على العالم باسمه مجرداً من اللقب يعده نوعاً من الانتقاص ، ويغضب عليه[٤].

بل وصلَّ الامر الى مخاطبة السلاطين للعلماء بالألقاب العالية التي تدل على التشريف والتكريم، مثال ذلك **((المقر الشريف العالي المولوي ، القاضوي الكبيريّ، العالمي، العادلي، الأصيلي، العريقي، القوامي، النّظامي، الإمامي، العلّامي، القدويّ، المفيديّ، الشيخيّ، الصاحبيّ، الحاكميّ، المحسنيّ، الفلانيّ، جمال الإسلام والمسلمين، سيّد الفضلاء العاملين، قدوة العلماء في العالمين، لسان المتكلّمين، برهان المناظرين، صدر المدرّسين، جلال**

(١) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج٥ ، ص٣٧٦ .

(٢) زبدة كشف الممالك ، ص٧٧ .

(٣) الباشا، الالقاب الاسلامية، ص ١٠٤.

(٤) ابن الحاج، ابو عبد الله محمد بن محمد(ت: ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م), المدخل الى تنميه الاعمال بتحسين الثبات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها، المطبعة الشريفة (القاهرة: د.ت)، ج١، ص١٢٦.

الطالبين، بقيّة السلف الكرام الدّارجين، بركة الملوك والسلاطين، خالصة أمير المؤمنين))[١].

ومن ضمن ألقاب العلماء في ذلك العصر هي : الجناب الشريف وصورته ((**الجناب الشريف، العالي، المولويّ، الشيخيّ، الإماميّ، العالميّ، العامليّ، الكافليّ، الفاضليّ، الزاهديّ، العابديّ، الخاشعيّ،الناسكيّ، الورعيّ، جلال الإسلام، سيف الإمام، قطب الزّهّاد، علم العبّاد، أوحد الناسكين، فرد السالكين، بركة الملوك والسلاطين))**[٢].

ولقب المجلس العالي ، ومجلس الشيخ **((مجلس الشيخ، الصالح، الزاهد، العابد، الناسك، السالك، فلان الدين، مجد الصّلحاء، زين المشايخ، بركة الملوك والسلاطين))**[٣] .

ومن ضمن الالقاب التي تمتع بها العلماء ، الشيخ الذي بقي ملازماً لهم ، وخاصاً بهم دلالة على مكانتهم[٤]. ولعل من الالقاب التي دلت على مكانتهم في المجتمع المملوكي ((الاديب البارع، والشيخ الصالح الزاهد الورع ، والعالم العلامة فريد دهره ووحيد عصره))[٥].

كذلك كانت للعلماء نقابة خاصة بهم أطلق عليها **((نقابة أو رئاسة المتعممين))**[٦]؛ بل أنهم تصدروا المجالس السلطانية ، فكانوا يجلسون عن يمين السلطان فوق المقدمين[٧]. وتأكيداً لتلك المكانة كان السلاطين يأمرون الاعيان عندما يرد العلماء عليهم، أن يكون الاستقبال لائقاً بهم ، وأن ينزلوهم في بيوت تكون فيها جميع ما يحتاج اليه أثناء مدة اقامتهم[٨] .

ولم تقتصر هذه المكانة والمنزلة الاجتماعية للعلماء على السلطة المملوكية ، بل تعداه الى بقية فئات المجتمع ، بدليل أن الناس عندما يشاهدون العلماء في الاسواق يقدمونهم على

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٦، ص١٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٦, ص١٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ج٦, ص١٥٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٦, ص١١٧ .

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ص٣١٥ .

(٦) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٢٢ .

(٧) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص٢٦٠ .

(٨) العيني، السيف المهند، ص٢٦٨ .

أنفسهم في البيع والشراء[١]. وكانوا قد أظهروا الالتزام بأقوالهم وفتاواهم ، والسلام عليهم عندما يرجعون من السفر[٢]. فضلاً عن الالتجاء اليهم في قضاء حوائجهم ، والتوسط لديهم عند السلاطين والامراء[٣].

ثالثاً . الحياة العائلية:

لم تختلف حياة العلماء العائلية عن بقية فئات وشرائح المجتمع المملوكي ، إلّا أنه من الصعب بمكان ايجاد شواهد وحالات تنص على تفرد العلماء بتلك الحياة ، سوى إشارات بسيطة لا تتعدى بعض الكلمات التي تعيق تكوين صورة واضحة المعالم عن الحياة العائلية للعلماء.

١. زي العلماء:

وإذا انتقلنا الى زي العلماء نجد أن العمامة قد ميزتهم عن غيرهم من فئات المجتمع، وليس الامر مقتصراً على العمامة إنما على حجمها ، وقد ذكر ذلك ابن بطوطة[٤] في وصفه لزي أحد العلماء قائلاً ((إمام من أئمة علم اللسان ، وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ، لم أر في مشارق الارض ومغاربها أعظم منها ، رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب ، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب)) .

وبقت العمامة تستخدم من قبل العلماء وغيرهم حتى عصر السلطان برقوق ، إذ أن لبسها كان بمثابة امراً قومياً، حتى أن الذي ينزعها من رأسه تعد منقصة ومثلبة عليه[٥] . وتعد الطرحة متممة للبس العمامة ، فكانت تستر العمامة وتلتف حول الرقبة ، ويبدو أنها كانت ميزة للقضاة الشافعية ، بدليل أن قاضي القضاة الحنفية طلب من أحد السلاطين منحه لبس الطرحة

(١) السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك ، ط١ ، تحقيق نجوى مصطفى كامل، دكتورة لبيبة ابراهيم مصطفى، دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة:٢٠٠٢م)، ص٣٦٦ .

(٢) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص١٠٥ .

(٣) الغزي، نجم الدين محمد بن محمد بن أحمد (ت: ١٠٦١هـ/١٦٥٠م) ، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق : جبرائيل سليمان جبور، ط ٢، دار الافاق الجديدة، (بيروت: ١٩٧٩م)، ج١، ص٧٤.

(٤) تحفة النظار في غرائب الامصار، ج ١، ص ١٣ .

(٥) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٠٤ .

أسوة بالشافعية[١]. ووضع الطيلسان فوق العمامة التي تغطيها وتنسدل حتى تصل الى الكتفين ، ومن أجل ضبطه وعدم ميلانه ربطوها بالإبر[٢].

وتمتع العلماء بميزة اللون في ارتداء الثياب ، فكانوا يلبسون الملابس ذات اللون الابيض في حالة حضورهم المواكب ، وفي فترة مكوثهم في البيت ونحوه فكانوا يرتدون الملابس الملونة[٣]. وسمي الثوب الذي يرتديه العلماء بالدلق ، ويكون متسع الاكمام طويل ، مفتوح الكتفين من دون تفريج، ويكون مسترسلاً حتى القدمين[٤]. على أن العلماء لم يرتدوا الحرير من الثياب، بل كان من الصوف الابيض المطلي ، كذلك لبسوا الخفاف من الاديم بغير مهاميز[٥].

كذلك كان العلماء يلبسون الجبة ذات اللون الابيض عندما يكونون في الخدمة السلطانية وفي أوقات معينة ، وتكون في موسم الصيف من القطن ، أما في الشتاء فتكون الجبة من الصوف[٦]. وعلى ما يبدو فإن بعض العلماء قد بالغ في قضية الملبس ، فقد عمدوا الى تكبير العمامة وسعة الاكمام ، الامر الذي أثار حفيظة الناس فقاموا بالسخرية منهم وأطلقوا عليهم أبه القاضي[٧]. بل تعدى الامر الى تمسك العلماء بزيهم في عصر المماليك البحرية وحرصوا عليه، وكانوا يوقرون مجالس الحديث في اللباس ، حتى باتت هذه الثياب بالنسبة للعالم كأنها فرض عليه[٨].

---

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٤٤ .

(٢) ابن الحاج ، المدخل ، ج ١، ص١٢٨ .

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة ، ج٢، ص٣٢٠ ؛ ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صلاح الشيني (مصر:١٩٧٢م)، ص١٩ .

(٤) العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري،ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت: ٢٠١٠م) ، ج٨, ص٢٥٩ .

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤ ، ص٤٤ .

(٦) ابن الفرات ، ناصر الدين محمد عبد الرحيم الحنفي (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥م) ، تاريخ الدول والملوك، المعروف المعروف بتاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق نجلا عز الدين، منشورات كلية العلوم والآداب، المطبعة الأميركانية (بيروت: ١٩٣٩م)، ج٢، ص٤٦٠ .

(٧) ابن الحاج ، المدخل, ج١، ص١٤٠ .

(٨) المصدر نفسه، ج١، ص١٤٠ .

وعلى الرغم من ذلك نجد أن بعضاً من العلماء قد اختار لبس الصوف على الحرير، كما فعل ذلك الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ-١٣٠٢م) عندما أصبح قاضياً للقضاة، فأمر بترك الحرير ولبس الصوف[١].

٢. ركوب العلماء:

أما ما يخص ركوب العلماء فكانوا يركبون البغال النفيسة المساوية في الاثمان للخيول، وفيها لجم ثقال وسروج مدهونة غير محلاة بشيء من الفضة ، ويجعلون حول السرج قرقشينا وهو يشبه ثوب السرج[٢].

٣. مسكن العلماء :

وفيما يتعلق بمسكن العلماء فكانت المعلومات شحيحة في وصف مسكنهم وطبيعة الحياة داخل منازلهم، ذلك أن المصادر التاريخية لم تفصل في هذا الجانب إلاَّ النزر اليسير، فتفاوت سكن العلماء من عالم لآخر طبقاً للمكانة ومستوى المعيشة ، فهناك أحياء خاصة بالأمراء والعلماء التي وصفت بجمالها ورقيها ، كما هو الحال في حي الادر بظاهر مصر الذي سكنه الاعيان من القضاة والكتاب[٣] . وهناك إشارات نستطيع من خلالها القاء الضوء على طبيعة الحياة في البيوت ، ومدى امكانية العلماء في انشاء البيوت . فقد كان العالم جمال الدين عبد الله بن قاضي القضاة جلال الدين محمد القزويني (ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م) ميسور الحال، وأعطى صورة للعالم المتمكن في انشاء البيوت ، فقد أنشئ بيتاً على النيل بجوار بيت أبيه ، واستدعى قضاة الاعمال لحمل الرخام ، واستدعى الصناع من الشام لبنائه وبالغ في اتقانه حتى بلغت تكلفته ما يزيد على خمسمائة الف درهم ، وعندما بلغ السلطان الناصر محمد ذلك احتج بأنه استقرض المال لعمارته ؛ ولم يكتف بذلك بل أنه اشترى داراً في القاهرة وجددها بمبلغ مائتي ألف درهم[٤] . كذلك اشترى برهان الدين ابراهيم بن جماعة قاضي القضاة الشافعية (ت ٧٩٠هـ /

---

(١) الاسنوي، جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن (ت ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م) ، طبقات الشافعية ، تحقيق: عبد الله الجبوري ، ط١، مطبعة الارشاد ، (بغداد : ١٩٧٤ م) ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤ ، ص٤٤ .

(٣) المقريزي ، المواعظ والاعتبار، ج ٣ ، ص ٢٨١ .

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٣٧.

١٣٨٨م) داراً في القاهرة وصفت بأنها من أجلّ دور القاهرة وأعظمها ، وقد أنفق على عمارته ما يزيد على سبعة عشر ألف درهم[١] .

وكان بعض بيوت العلماء تشتمل على الخدم وما الى ذلك من الرفاهية والعيش الرغيد ، فكان القاضي الحنفي محمد بن عثمان بن أبي الحسن الحريري الدمشقي (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) يبالغ في تعظيم نفسه في داره ، وكانت عنده امرأة جعلها نقيبة في بيت حرمه ، فإذا دخل عليهن تلقته النقيبة من الباب ومشت بين يديه وهي تقول ((**باسم الله سيّدنا ومولانا قاضي القضاة ، ونعوت كثيرة فيها تفخيم وتقعير، حتى ينتهي إلى مرتبة عالية في صدر بيته فيجلس عليها، ويقف نساء داره بأجمعهنّ بين يديه بأدب زائد وسكون. فيلتفت إلى زوجته ويقول لها: أكرمي النقيبة، فإنّها تعظّم بعلك**)) [٢] .

٤. الزواج:

وفيما يتعلق بمسألة زواج العلماء ، فنجد أنها لم تختلف عن بقية الشرائح الاخرى، ويبدو أن البعض من العلماء كان حريصاً للزواج من بنات أساتذتهم باتخاذهم قدوات لهم، وللسمعة الحسنة التي اشتهروا بها، فيذكر أن القاضي جمال الدين المارديني (ت ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م) وهو من العلماء المعتبرين في سلطنة الناصر حسن قد تزوج من صالحة بنت قاضي القضاة الشافعية عز الدين عبد العزيز بن جماعة ، وكان لهذا الزواج أثره الحسن في توطيد العلاقة بين فقهاء المذاهب ، حيث ((**صار القضاة الثلاثة الحنفي والشافعي وموفق الدين الحنبلي شيئاً واحداً، وكلمتهم متفقة**))[٣]. وهذا يعني أن الزواج قد وطد العلاقة وتكلل بالنجاح .

ويروي لنا المقريزي[٤] تفاصيل زواج أحد العلماء ، وهو علاء الدين بن عرب من ست العمائم وهي إحدى بنات التجار المعروفين في القاهرة ، وكانت زوجته تساعده في تجهيز متطلبات العرس من ذلك الدكة التي هي شبيهة بالسرير يعمل من الخشب ، فأرسلت اليهِ وكيلها

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص١٠٢.

(٢) المقريزي، المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوي،ط١، دار الغرب الاسلامي، (بيروت : ٢٠٠٦ م)، ج٦، ص١١٠ .

(٣) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧ ، ص١٠٧.

(٤)المواعظ والاعتبار، ج٣، ص١٩٠ .

((فبلّغه سلامها عليه وأخبره أنها بعثت إليه بمائة ألف درهم فضة خالصة ليصلح بها لها ما عساه اختلّ من الدكة الفضة، فأجابه إلى ما سأل وأمره بإحضار الفضة، فاستدعى الخدم من الباب فدخلوا بالفضة في الحال، وبالوقت أمر المحتسب بصناع الفضة وطلائها، فاحضروا وشرعوا في إصلاح ما أرسلته ست العمائم من أواني الفضة وإعادة طلائها بالذهب، فشاهدنا من ذلك منظرا بديعاً)) .

وقد كان جهاز العروس في ذلك العصر يتألف من دكة من الخشب **((مطعم بالعاج والأبنوس، أو من خشب مدهون، وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة، وعدّة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض، تبلغ كبراها ما يسع نحو الأردب من القمح، وطول الأكفات التي نقشت بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع في عرض إصبعين، ومثل ذلك دست أطباق عدّتها سبعة بعضها في جوف بعض، ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر، وغير ذلك من المناير والسرج وأحقاق الأشنان والطشت والإبريق والمبخرة، فتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتي دينار ذهبا، وكانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب أو أماثل التجار تجهز في شورتها عند بناء الزوج عليها سبع دكك، دكة من فضة، ودكة من كفت، ودكة من نحاس أبيض، ودكة من خشب مدهون، ودكة من صيني، ودكة من بلور، ودكة كداهي: وهي آلات من ورق مدهون تحمل من الصين، أدركنا منها في الدور شيئا كثيرا، وقد عُدِمَ هذا الصنف من مصر إلّا شيئا يسيرا))**[1].

(١) المقريزي, المواعظ والاعتبار، ج٣, ص١٩٠ .

الفصل الثاني
إسهام العلماء في الوظائف الرسمية

لمحة تاريخية عن النظام الاداري المملوكي:

كانت مصر وبلاد الشام مقسمة إدارياً في دولة المماليك البحرية ، ووفق هذا التقسيم تم التعامل مع كلاً من مصر وبلاد الشام ، أي أصبحت كل منهما وحدة إدارية مستقلة عن الاخرى، مع بقاء القاهرة عاصمة المماليك . فمصر كانت مقسمة الى أربعة عشر اقليماً ، تسعة اقاليم في الوجه القبلي، وخمسة أقاليم في الوجه البحري[١] . بينما نجد أن بلاد الشام كان لها وضعها الخاص بسبب موقعها الجغرافي الذي حَتَّمَ عليها مواجهة العدوان الجغرافي ، لذلك عمد سلاطين المماليك الى تقسيم بلاد الشام الى نيابات ، كنيابة دمشق التي تأسست سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م ، وتعد أكير الوحدات الادارية في بلاد الشام ، حتى أطلق عليها نيابة الشام[٢]. وتأتي نيابة حلب في المرتبة الثانية بعد دمشق ، التي هي الاخرى تأسست سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م فقد توسعت إدارياً حتى قيل في حقها **((فليس في المملكة ما يقاربها في كثرة معاملاتها والقلاع المضافة اليها والمدن المختصة بها والعواصم والحصون والبراري المتسعة))**[٣]. ثم تأسست نيابة طرابلس سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م بعد أن تمت عملية تحريرها من أيدي الصليبيين ، وقام المماليك بحملة لإعمارها حتى أصبحت مدينة ذات مدلول اداري[٤] . كذلك قام المماليك بتأسيس عدد من النيابات لكن ليس بمستوى النيابات سالفة الذكر، ومن هذه النيابات نيابة حماة ، وهي على الرغم من كونها نيابة صغيرة لكنها تمتاز بوجود القلاع والقرى التي تبعت لها إدارياً[٥]. كذلك نيابة صفد التي أنشئت بعد أن حررها الظاهر بيبرس من الصليبيين، وصفت بأنها مشتملة على العديد من القرى ، فضلاً عن أن لها عدة معاملات[٦]. ومن النيابات التي أنشئت هي نيابة الكرك التي أنشأها الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م بعد أن أخذها من الملك المغيث الايوبي[٧] .

---

(١) العمري، التعريف المصطلح الشريف, تحقيق : محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية, (بيروت:١٩٧٥م)، ص٢١٩.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى ، ج٢ ، ص١٨٤ .

(٣) ابن الشحنة، أحمد بن محمد بن محمد أبو الوليد (ت٨٩٠هـ/١٤٨٥م) ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تحقيق عبد الله محمد درويش ، دار الكتاب العربي ، (القاهرة : ١٩٧٩م) .

(٤) ابن شاهين، الزبدة ، ص١٢٣.

(٥) الملطي، زين الدين عبد الباسط بن خليل (ت ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) ، نيل الأمل في ذيل الدول ، تحقيق عمر عبد السلام القدري ، المكتبة العصرية ، (بيروت: ٢٠٠٢م)، ج٣، ص٤٩.

(٦) ابن شاهين، الزبدة، ص١٠٨.

(٧) المقريزي، السلوك ج٢، ص٤٩١.

ومما لا شك فيه أن دولة المماليك البحرية تعد دولة مؤسسات في ضوء الاجهزة الادارية والوظائف المتنوعة والمتعددة سواء في الجانب الديني أو الجانب الديواني ، وقد زخرت الكتب التاريخية في بيان هذه الوظائف وأهميتها في تسيير العمل الاداري ونجاح الدولة على ذلك المستوى على الرغم من كثرة الاضطراب السياسي . فعلى الرغم من أن دولة المماليك كانت ذات طابع عسكري ، إلّا أنها طورت ذلك وأفادت من سبقها من الانظمة الادارية حتى قيل في حقها **((وقد تفتحت المملكة وترتبت فأخذت في الزيادة في تحسين الترتيب وتنضيد الملك وقيام أبهته ، حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب))**[١] . بل أن السيوطي أشار الى حقيقة ذلك التطور وربطه بتأثر المماليك بجرانهم المغول قائلاً **((أن السلطان بيبرس واضع نظم دولتهم، أراد أن يسلك في تنظيم مملكته بمصر مملكة جنكيز خان – وهي دولة المغول – فرتب في سلطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بمصر))**[٢] . وقد بلغت تلك النظم الادارية المملوكية غاية في الدقة والانضباط بحيث بقت سائرة الى نهاية دولتهم ، فمركز الادارة المملوكية كان في القاهرة وفيها ينتشر كبار الموظفين الاداريين ونظار الدواوين ، وكذلك هناك الادارة المحلية ، وولاة الاقاليم ، كل ذلك كان مرتبط ارتباطاً مباشراً بين العاصمة وأجزائها[٣] .

ولعل على رأس الهرم الوظيفي في دولة المماليك البحرية هو السلطان الذي مثل **((سرّ من أسرار الربوبية يتُحفظ بها البلاد والعباد , ويقطع بها دابر كل من قصد العناد, وللسلطان حماية بلاده, وحراسة دينه, وحفظ ما افترض الله من الاحكام، واجب على الرعايا طاعته فيما أمر به والاستسلام))** [٤] .

وتحت خدمة السلطان تندرج عدة وظائف لتكون جهازاً ادارياً يعتمد عليهم في حال غياب السلطان ، أو انشغاله في بعض الامور ، فمن ذلك نائب السلطنة لذي يعد الساعد الايمن للسلطان وقد اطلق عليه تسمية القائم مقام السلطان[٥] . وإن من أهم أعماله هي توزيع الاقطاعات ، وتنصيب الأمراء وتوقيع المراسيم وله الحق في استخدام الخبر من غير مشورة السلطان كونه نائباً عنهُ[٦] .

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤ .

(٢) حسن المحاضرة ، ج٢، ص٨٥ .

(٣) حسن، علي إبراهيم ، تاريخ المماليك البحرية، ط٣، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة : ١٩٦٧م) ، ص٢٧٥.

(٤) ابن شاهين الظاهري ،الزبدة , ص١٢٥ .

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى, ج٤, ص١٧.

(٦) العمري, التعريف, ص٦٥-٦٦.

ويأتي في المرتبة الثالثة ضمن الجهاز الاداري الاتابك (أتابك العسكر)، ويطلق عليه القائد العام للجيش المملوكي ، وأصبح الرجل الاول بعد السلطان بعد أن تَمَّ الغاء وظيفة نائب السلطنة سنة ٨٤٢ هـ/ ١٤٤٨م[١] .

(١) المقريزي, المواعظ والاعتبار, ج٢, ص٢١٥ .

المبحث الاول
الوظائـــف الدينيـــة

على الرغم من أن هناك من العلماء من اختص في أعمال بعيدة عن العمل الوظيفي ، مكتفين بحياة الكفاف وشيق العيش ، إلا أن هناك فئة من العلماء، لم ترض بهذه الحالة فوجدوا لأنفسهم حالة معيشية خاصة بهم من خلال الإسهام في وظائف الدولة، وذلك حسب قربهم من السلاطين ورجالات الدولة، وحتى لشهرتهم في ميدان العلم، لذلك حفلت الدولة المملوكية بعدد من العلماء الذين ذاع اسمهم وخلدوا أَسماءَهم فيها سواء في الوظائف الدينية او الديوانية[١]. ويندرج تحت هذا المسمى نوعان من الوظائف، الوظائف الدينية التي تعني بإدارة مجموعة من القضايا والمرافق التي لها علاقة وثيقة بالجانب الديني، أما النوع الثاني فهي الوظائف الديوانية التي تعني بإدارة العديد من المرافق الحيوية في ادارة الدولة ومؤسساتها[٢].

ولعل السبب في انفتاح السلاطين على العلماء والاهتمام بهم هو أن المماليك بصفة عامة كانوا غرباء عن البلاد واهلها واحتاجوا الى فئة تكون واسطة بينهم وبين أهل البلاد وكانت هذه الوساطة هي العلماء الذين كانت لهم الحظوة بين الناس بوصفهم الجانب الروحي والشرعي للناس[٣].

لقد مارس العلماء الواناً شتى من النشاط الديني والعلمي، فكان منهم المفسر والمحدث والفقيه والنحوي والمؤرخ وغيرهم من المشتغلين بأمور الدين وبالعلوم النقلية والعقلية ، هذا فضلاً عمن اشتغلوا بالنشاط الديني ومارسوا الوظائف في دولة المماليك مثل القضاء والتدريس ومشيخة الشيوخ والخطابة والإمامة وغيرها[٤].

والواقع أن فئة العلماء مارسوا دوراً كبيراً في المجتمع المصري والشامي في شتى جوانبه، وساهموا اسهاماً كبيراً في ادارة الدولة، وباشروا في الوظائف الدينية على اختلاف أوجهها ويمكن تصنيف هذه الوظائف تصنيفاً دقيقاً حسب طبيعة الوظائف القضائية التي اختصت بالعمل في مجال القضاء، ومنها الوظائف التعليمية والتي مارسوا فيها العلماء نقل التراث الديني والعلمي للحضارة الاسلامية الى الاجيال التالية ، ومنها الوظائف المرتبطة بشعائر الدين اي بشؤون العبادة مثل الإمامة والخطابة وما يرتبط بالتصوف ، على أن هذه الوظائف جميعاً ذات طبيعة دينية وعلمية متداخلة[٥].

---

(١) علاوي ، الحياة المعيشية والاقتصادية للعماء في العصر المملوكي، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، ع٢٩، (جامعة واسط :٢٠٠٨م) ، ص١٦٠.

(٢) علاوي، الحياة المعيشية والاقتصادية للعلماء في العصر المملوكي، ص١٦٠.

(٣) السلوك، ج٣، ص٣٨٣.

(٤) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار ابو زيد الشلبي ومحمد ابو العون، دار النهضة، (القاهرة : ١٩٨٦م) ، ص٦٧.

(٥) ماجد، عبد المنعم، نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الانجلو المصرية، (القاهرة : ١٩٨٥م)، ص٩٤.

وعلى هذا الاساس سنقوم بذكر الوظائف الرئيسة التي تقلدها العلماء في دولة المماليك البحرية وفقاً لترتيبها وأهميتها في تلك الدولة:

أولاً . وظيفة القضاء :

القضاء في اللغة: تأتي بمعنى قضى الحكم وأهله قضاي لأن من قضيت الا ان الياء لما جاءت بعد الألف همزت، جواب بعد الألف الزائدة طرفا همزت، والجمع الاقضية فعاله والجمع القضايا على فعالى واصله فعائل.. وقضى عليه يقضي قضاء وقضية، الاخيرة مصدر كالاولى، والاسم القضية فقال ابو بكر، قال اهل الحجاز والقاضي معناه في اللغة القاطع للامور المحكم لها، واستقضي فلان، أي جعل قاضياً يحكم بين الناس وقضى الامير قاضياً، كما تقول أمر اميراً وتقول قضى بينهم قضية وقضايا والقضايا: الأحكام واحدتها قضية، ويقال: قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ إذا حكم وفصل وقضاء الشيء أحكامه وامضاؤه والنزاع فيه بمعنى الخلق(١).

أما في الاصطلاح: فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطاً للتنازع، الا انه بالاحكام الشرعية المستقاة من الكتاب والسنة(٢).

وتظهر أهمية القضاء في كونه المدافع الرسمي الشرعي لأصحاب المظالم، وتواجد كثير من العلماء الذين التزموا هذه الوظيفة وتمسكوا بالتعاليم الشرعية لذلك نجد ان في كثير من الاحيان وقف العلماء والقضاة الى جنب الاشخاص عندما كانت تصدر بحقهم عقوبات أَو احكام جائرة او حتى تعرضهم لبعض المظالم من قبل نواب السلطنة وتكون مهمة القاضي الكف عن هذه المظالم(٣).

ويحكم القضاء في الخلافات التي تنشأ بين الناس والنظر في المسائل الشرعية ،كالزواج والطلاق والمواريث وشؤون اليتامى والأرامل والمعاملات في الاسواق واستيفاء الحقوق ، وكذلك اختيار الشهود وعزلهم إذا ما ظهر في سلوكهم ما ينقص عدالتهم ، ولذلك فمن الضروري أن يكون على اطلاع واسع بشؤون الحياة الاجتماعية وأحوالهم العامة وله معرفة في القوانين والعادات والتقاليد السائدة بين الناس(٤).

---

(١) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، دار صادر،(بيروت: ١٩٦٨م) ج١٢، ص١٣٢.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ط٢،دار صادر، (بيروت: ٢٠٠٩ م), ج١، ص٤٠٢.

(٣) ابن حجر العسقلاني، ابناء العمر، ج٣، ص٣٣٩.

(٤) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١١٩- ١٢٠.

لذلك أولى السلاطين المماليك شؤون القضاة والعدالة جانباً كبيراً من اهتمامهم وعنايتهم وكان أهم تطور حدث في النظام القضائي في عصر السلاطين هو ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٥م من تعيين قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة، بعد أن كان في عهد الدولة الايوبية على قاضي القضاة الشافعي(١).

ويرجع السبب في اختيارهم الى أسباب غير مباشرة وأسباب مباشرة، فالأسباب غير المباشرة هي أن البقاء على قاضي القضاة الشافعية وحده فيه إجحاف لبقية المذاهب الاسلامية فجاء هذا التغيير، كذلك ازدياد اتباع المذاهب الثلاثة وانتشارهم الى جانب المذهب الشافعي فاقتضى هذا الانتشار للمذاهب وجود قضاة كبار للتشريع والفتوى فيما يستجد من أمور وقضايا(٢).

ولعل السبب المباشر لذلك الاجراء هو الاقوى من بين تلك الاسباب، فقد صرح به المؤرخ ابن تغري بردي(٣) عند حديثه في أحداث تلك السنة قائلاً **((وسبب ذلك كثرة توقف قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الاعز في تنفيذ الأحكام التي لا توافق مذهبه، وكثرة الشكاوي منه بسبب ذلك، فلما كان يوم الاثنين شكا القاضي المذكور الامير جمال الدين ايدغوي العزيزي في المجلس وكان يكره القاضي تاج الدين المذكور، قال ايدغي بحضرة السلطان: يا تاج الدين نترك مذهب الشافعي لك، ونولي معك من كل مذهب قاضياً فمال الملك الظاهر الى كلامه، فولى السلطان صدر الدين سليمان الحنفي قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية، والقاضي شرف الدين عمر السبكي المالكي قاضي قضاة المالكية، والشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ العماد الحنبلي قاضي قضاة.. وكتب لهم التقاليد وخلع عليهم ثم فعل ذلك ببلاد الشام كله. على نمط هؤلاء وجد قضاة اربعة في كل من دمشق بحلب وحماه وطرابلس وغيرها من النيابات الشامية وكانوا يعينون من قبل الابواب السلطانية))**(٤).

فكان القضاء في العصر المملوكي أثر كبير في المجتمع نظراً لطبيعة عملهم وكثرة اختصاصهم وتنوع المهام المناطة بهم، فكانت لهم إمامة الصلاة والنظر في الوصايا والاوقاف وشؤون اليتامى والمحجور عليهم والتدريس في المدارس، فضلاً عن حق الجلوس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف والتحدث بالاحكام الشرعية وتنفيذ قضاياهم والقيام بالأوامر الشرعية ،والفصل بين الخصوم، وتعيين النواب في القضاء، واما القضايا التجارية فكانت من

(١) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ج٩، ص١٤-١٥-٢٧؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص٥٣٨-٥٣٩.

(٢) علاوي، عمار مرضي، أثر المغاربة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي القضاء انموذجاً، مجلة جامعة ديالى، ع٥٦،(ديالى: ٢٠١٢م)، ص٣٤٦.

(٣) النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٠٩.

(٤) المنهل الصافي والمستوفي ، ج١٢، ص٧.

اختصاص الادارة، إذ كانوا يوظفون من قبل السلطان في امانة السر الخاصة في خزينته الشخصية وفي المكاتب العسكرية[١].

ويعد القضاء ايضاً من فئات المجتمع المهمة والخطيرة التي تعكس مدى تقدم المجتمع او تأخيره عن طريق تحقيق العدالة الاسلامية بسبب مكونات المجتمع المملوكي وقد سعى الخلفاء والسلاطين الى تكوين شريحة مهمة يعتمد عليها الخليفة والسلطات لتضيف العدالة بين المجتمع المملوكي، فكلما كان القاضي يتمتع بشروط الاسلامي وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) وقوة عقائده عاش المجتمع بأمان وسلام وان القضاء والقضاة في مصر وبلاد الشام مر بمراحل حسب قوة الدولة وضعفها، إذ يستمد القاضي قوته وسلطته من قوة وسلطة الخليفة والسلطان وقد تطور القضاء في مصر حسب تطور الحياة في المجتمع، نظراً لما تعرضت له مصر من الغزوات والحروب اصبحت تضم الكثير من الاجناس والقوميات التي ادت الى تعدد الاديان والمذاهب وبذلك اصبحت الحياة ملحة في ايجاد الحلول المناسبة لمشكلات الناس وكان لا يحكم في مصر الا قاضي شافعي فقط[٢].

ويطلق على الشخص الذي يتولى رئاسة القضاء بقاضي القضاة وعن طريقه يتولى إدارة المذاهب الثلاثة الاخرى، ولكي تبتعد الدولة عن الاحتكار لمذهب واحد أصبحت تشيع المذاهب الأربعة بين الناس، إذ اصبح لكل مذهب قاضٍ يفتي به ويحكم حسب آراء المذهب[٣].

ومن العادة أَنْ يلحق في نهاية اسم كل قاضي المذهب الذي يتبعه ويكون لازماً له ويعرف عن طريق مذهبه الشافعي او الحنفي او المالكي او الحنبلي فكان السلطان عند تعيين ما يصدر تقليد وهو مكاتبة رسمية على لسان السلطان موجه الى القاضي يقلده فيه اعماله[٤].

وعلاوة على ما تقدم من كلام حول القضاء واهميته في الدولة المملوكية سنقوم بدراسة اهم العلماء الذين تولوا مناصب القضاة في مصر وبلاد الشام وما هو الأثر الذي تركوه في مدة ولايتهم للقضاء مع التأكيد في ذكر سيرة القضاة يكون حسب سنوات الوفاة.

١- أحمد بن القاضي علاء الدين بن القاضي محيي الدين ابن الزكي القرشي الدمشقي الشافعي (ت ٦٨٠هـ / ١٢٨١م):

ولد سنة ٦٣٢ هـ /١٢٣٤ م ، وكان رئيساً فاضلاً وأديباً، كتب في الانشاء مدة، وحدث عن ابي بكر الخازن، وسمع ببغداد من أبي جعفر السيد ، وناب في القضاء بعد وفاة أبيه الذي كان قاضياً [٥].

(١) علاوي، اثر المغربة في بلاد الشام، ص٣-٤.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ص٣٢١.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٣٤١.

(٤) سليم، عصر السلاطين، ج٢، ص٦٣.

(٥) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي،، ج٢، ص٢٥٧.

٢- محمد بن عبد العظيم بن علي بن سالم جمال الدين السقطي (ت ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م):

يكنى ابا بكر، وناب في الحكم بالديار المصرية مدة أربعين سنة وكان صارماً مهيباً كثير التثبت ، وله في القضاء سيرة حسنة ، فعندما شهد عنده جماعة في قضية توقف فيها كثيراً، وله في اخراج التزوير قضايا كثيرة وكان لا يقبل من الشهود الا النادر ، ومن مآثره في احترام القضاء وحفظ هيبته ، أن رجلاً شهد عنده فقال له احضر من يعرفك، فأحضر له الشيخ علاء الدين الباجي، فقام له السقطي ووقره له وحفظ له مكانته ، لكنه طلب من الشاهد أن يأتي برجل يعرفه غير الشيخ معللاً ذلك بالقول **((سيدي علاء الدين أجلّ من هذا وأكبر فأتِ بمن يعرف بك))** [١] . قال عنه البرزالي[٢] **((كان رجلاً جيداً مشكور السيرة في القضاء ، حسن الهيئة عارفاً بالأحكام خبيراً محترماً، ناب في القاهرة مدة طويلة))** .

٣- محمد بن عثمان بن ابي الحسن بن عبد الوهاب الانصاري القاضي شمس الدين بن صفي الدين الحريري الحنفي (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م):

كان أبوه يتاجر في الحديد، ولد في صفر سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥ م ، سمع على مجموعة من علماء عصره ، وحدث وتفقه ودرس وكانت له عدة محفوظات في الفقه والنحو وغيرها، ثم تدرج في العلوم حتى ولي قضاء دمشق، ولحسن سيرته طلب إلى مصر فولي القضاء بالديار المصرية في ربيع الآخر سنة ٧١٠هـ /١٣١٠ م عوضاً عن شمس الدين السروجي، وأضيف اليه تدريس الناصرية[٣] والصالحية[٤] والجامع الحاكم[٥]، وكان حريصاً على تخليص الحقوق وفصل القضايا وكثير النفع لأصحابه موصوفاً بالنزاهة ، وكان لا يقبل الهدايا[٦]. وكانت له مواقف صلبة في الحفاظ على هيبة القضاء وعدم الرضوخ للسلطان على حساب الامانة ، فعندما طلب منه السلطان الناصر قلاوون أن يوافق على استبدال الاوقاف حسب المذهب الحنفي ، لأن

---

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص١٨.

(٢) علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) ، المقتفي على كتاب الروضتين، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية ، ط١ (بيروت :٢٠٠٦ م)، ج ٢، ق١، ص ٣٧٢ .

(٣) المدرسة الناصرية، هي المدرسة التي بناها العادل كتبغا، وأتمها السلطان الناصر قلاوون سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م، وكان يدرس فيها المذاهب الاربعة . ينظر: السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج٢، ص٢٦٥ .

(٤) المدرسة الصالحية، تقع بين القصرين وهي من أجلّ مدارس القاهرة ، بناها الملك الصالح نجم الدين ايوب ، وكانت مخصصة لتدريس المذاهب الاربعة. ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٢٦٣ .

(٥) الجامع الحاكم، هو الجامع الذي بناه الخليفة العزيز بالله أبو منصور الفاطمي ،وهو في ظاهر القاهرة من جهة باب الفتوح بناه في سنة ٣٨٠هـ /٩٩٠ م وأكمله ابنه الحاكم بأمر الله فكانت تقوم به خطبة الجمعة بين الحين والآخر. ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٤، ص٣.

(٦) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٥، ص٢٩٠.

السلطان أراد أن يلحق بقصره والاصطبل قطعة ارض من بركة الفيل كي تكون متسعة له ولأمرائه، فرفض القاضي وأفهم السلطان حرمة ذلك **((فلما رأى كثرة ميل السلطان الى أخذ الارض ، نهض من المجلس مغضباً وصار الى منزله))**[١].

٤- ابن أبي المنى (ت ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م):

هو ابراهيم بن عرفات بن صالح القاضي زين الدين الشهير بابن ابي المن القنائي الشافعي ، كان فقيهاً حاكماً حسن الاعتقاد والسيرة ، ولي قضاء قنا[٢]، وكان له ثروة ويميل لدين وخير ويتصرف في كل سنة في يوم عاشوراء بألف دينار[٣] .

٥- محمد بن علي بن فرج بن محمد بن حذلم (ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م):

ولد في سنة ٧٠٣ هـ /١٣٠٣ م أخذ عن خاله القاضي أبي جعفر بن قعنب وانتفع به وكتب بين يديه ، وكان حلو النادرة ، كان من القضاة[٤].

ثانياً . وظيفة قاضي القضاة :

يتكون هذا المنصب من أربعة قضاة وفقاً للمذاهب الأَربعة الشافعي والحنفي ثم المالكي والحنبلي ويعد القاضي الشافعي اعلاهم مرتبة[٥].

وتعد هذه الوظيفة أرفع وظيفة في العصر المملوكي ومن بين مهامه التحدث في الاحكام الشرعية والفصل بين الخصوم، فضلاً عن النظر في الاوقاف وتزويج الايامى، كذلك تعين للنواب والموقعون والشهود[٦].

ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة:

١. تقي الدين ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م):

وهو من القضاة المشهورين في العصر المملوكي ، تولى قاضي القضاة بعد وفاة قاضي القضاة المصرية تقي الدين ابن بنت الاعز سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م ، عندما سألوا ابن دقيق العيد أن يتولى القضاء لكنه رفض وبعد إلحاحٍ شديد عليه قبل القضاء في تلك السنة ، بعد

---

(١) المقريزي ، الخطط المقريزية، ج٣ ، ص ١٢٥ .

(٢) قنا، بكسر القاف، والقصر، كلمة قبطية، وهي مدينة بالصعيد لطيفة بينها وبين قوص يوم واحد. ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣٩٩.

(٣) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج١، ص١١٩.

(٤) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٣٣٥.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص٢٥٥.

(٦) النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) ، نهاية الارب في فنون الادب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (القاهرة: د.ت)، ج٤، ص١٩٩.

أن أخبروه أن هناك شخصان غير مؤهلين للقضاء سيحلون مكان ابن بنت الاعز إن لم تقبل[١]. فأصبح بعدها كبير القضاة في مصر وكان يعزل نفسه ثم يعود لمنصبه خوفا من الاثم لما قبل بهذا المنصب ، وكانت سيرته فيه محمودة[٢].

وكان شديد المحاسبة لنوابه في القضاء ويبالغ في وعظهم ويشترط عليهم أن لا يستنيبوا إلا من اشتهر عن معرفة الفروع[٣] ، كذلك أرسل كتاباً اليهم يدعوهم الى استشعار الامانة وعظم المسؤولية التي يحملونها ، مذكرا إياهم بعواقب الرشوة ، فضلاً عن بَراء ذمته من أي محالفة يقومون بها ، وجعل هذا الكتاب حجة عليهم[٤] .

ومن مواقفه الخالدة في صون الامانة وعدم الرضوخ للمسؤولين، أنه في سنة **٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧م** ادعى نائب السلطنة (منكوتمر) بأن أحد التجار مات وترك أخاً له ولم يخلف غيره ممن يرثه وكان يريد أن يثبت استحقاقه للإرث بمجرد هذا الادعاء، فما كان من موقف قاضي القضاة ابن دقيق العيد إلا أن رفض ذلك الادعاء، فتردد الرسل عليه ليقنعوه بذلك ، وتحرج موقف منكوتمر فبعث اليه أحد الامراء يدعى كرت الحاجب [٥] وعند دخوله على القاضي وقف بعدما سلم ، فقام له القاضي نصف قومة ورد عليه السلام وأجلسه ، فأخذ كرت يتلطف بالقاضي في اثبات أخوة التاجر بشهادة منكوتمر، فقال له قاضي القضاة : **((وماذا ينبني على شهادة منكوتمر، قال له: يا سيدي ما هو عندكم عدل. فقال: سبحان الله ثم أنشد: يقولون هذا عندنا غير جائز، ومن أنتم حتى يكون لكم عند، وكرر ذلك ثلاث مرات، ثم قال: والله متى لم تقم عندي بينة شرعية ثبتت عندي وإلا فلا حكمت له بشيء باسم الله))**[٦] .

فقام كرت وهو يقول، والله هذا هو الاسلام، فعاد الى منكوتمر وأعتذر اليه بعدم نجاح مهمته بإقناع القاضي، وأنه لا بد من اجتماعه بالقاضي عند مجيئه لدار العدل[٧]، وعند حضوره

---

(١) الاسنوي، طبقات الشافعية، ج٢، ص١٠٣.

(٢) ابن حجر العسقلاني، رفع الاصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي (القاهرة: ١٤١٨ هـ/ ٢٠١٨م)، ص٣٩٦.

(٣) الاسنوي، طبقات الشافعية ، ج٢ ، ص١٠٣.

(٤) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب (القاهرة: ١٩٨٨م)، ج٣، ص٣١٩ .

(٥) كرت، يقال له كرد، وهو الامير سيف الدين المنصوري نائب طرابلس، فارس شجاع من الابطال المذكورين، فيه دين وخير، له معروف وصدقة واعتناء بأهل الحرمين، استشهد في معركة مع المغول سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م . الذهبي، تاريخ الاسلام، ج٥٢، ص٤٣٦ .

(٦) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٩٢– ٢٩٣.

(٧) دار العدل، بناها السلطان الظاهر بيبرس وجلس بها للنظر في المظالم ، ولما جاء السلطان الناصر للسلطنة واظب في الجلوس فيه يومي الاثنين والخميس، وكانت هيئة الجلوس في هذه الدار أنه تضم السلطان وكبار رجال الدولة والقضاة للنظر في الامور الشائكة.ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٠٧.

لدار العدل في اليوم المخصص تسارع اليه الحجاب يخبروه برغبة منكوتمر الشديدة للاجتماع به لخدمته ، لكنه لم يلتفت لاحد منهم ، ولما ألحوا عليه قال لهم **((قولوا له ما وجبت طاعتك علي والتفت الى من معه من القضاة وقال : أشهدكم أني عزلت نفسي باسم الله ، قولوا له يول غيري))**[١] .

وهذا يعطي انطباعا أن وظيفة القاضي ليست الفصل في الاحكام أو اعطاء الفتوى، إنما هي الدفاع عن حقوق الناس وأخذها ممن اغتصبها، فهو ليس موظفاً عند السلطان يأتمر بأمره، وهذا المنصب في نظره تكليف لا تشريف بدليل أنه رغم الاملاءات عليه لكنه تمسك بمبدئهِ ورفض ضغوطات نائب السلطنة في اثبات أخوة شخص ميت[٢].

٢- ابراهيم بن علي بن احمد بن علي بن يوسف بن ابراهيم العلامة قاضي القضاة ابو اسحاق الحنفي المعروف بابن عبد الحق (ت ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م):

كان إماماً فقيهاً بارعاً مصنفاً، افتى ودرس وانتفع به الطلبة ودام على ذلك بدمشق الى أن طلبه السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى القاهرة في جمادى الاخرة سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م، فتولى بها قاضي قضاة الديار المصرية وحمدت سيرته، ودرس بالقاهرة وافاد واشتغل مدة اقامته بها الى أن عزل وعاد الى دمشق ثانياً[٣]، فضلاً عن ذلك فإن له اجازة الاوقاف، ومسألة قتل المسلم بالكافر وغير ذلك، وتصدر للافتاء والتدريس مدة طويلة، حتى أنه تفقه به جماعة من الاعيان، وكان يقرأ في علوم كثيرة وله مشاركة في الادب وغيره[٤].

٣- قاضي القضاة جلال الدين الحنفي (ت ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م) :

أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن بن ابو شروان العلامة قاضي القضاة جلال الدين الحنفي الانكوري[٥]، كان قد برع في الفقه وأفتى ودرس وتصدر للافتاء في حياة والده واشتغل عدة سنين، وحمدت سيرته ثم ولي قضاء الحنفية في دمشق عند توجه والده إلى الديار المصرية

(١) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٩٢.

(٢)شيخ الاسلام تقي الدين ابن دقيق العيد ومواقفه من سياسة الدولة المملوكية ، مجلة جامعة الانبار للعلوم الانسانية، ع٣ (الانبار: ٢٠١٦م) ، ص٨٨.

(٣) الحنفي, محيي الدين عبد القادر بن محمد (ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م): الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢ (القاهرة: ١٩٩٣م)، ج١، ص٤٢.

(٤) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص١٢٧.

(٥) الانكوري، نسبة الى مدينة أنكورية، التي هي مدينة أنقرة، والعجم تلفظها أنكورية، مدينة مشهورة بأرض الروم، كان الخليفة هارون الرشيد قد غزاها وفتحها في خلافته.ينظر: القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر للطباعة والنشر (بيروت: ١٩٦٠م)، ص٥٠٦.

ثاني صفر سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦ م ، وكان ذكياً عارفاً بالمذهب واصوله محققاً اماماً في العلوم العقلية وله يد في الأدب[١].

٤- قاضي القضاة شرف الدين الكفري الحنفي (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م):

هو أحمد بن حسين بن سليمان بن فوازه قاضي القضاة شرف الدين ابوه العباس الكفري الحنفي الدمشقي قاضي قضاة الحنفية بدمشق، كان اماماً عالماً وفقيهاً بارعاً عارفاً بالأحكام، ناب في الحكم بدمشق سنين، ثم اشتغل بوظيفة القضاء وحمدت سيرته وشكرت افعاله وباشر القضاء بعفة ودين وكان خليفاً للقضاء ثم ترك المنصب لولده متنزهاً عن ذلك وأخذ في الاشتغال والعبادة الى ان توفى في دمشق[٢].

ثالثاً. وظيفة افتاء دار العدل:

تعني هذه الوظيفة بالفتوى في دار العدل بحضور صاحب الوظيفة بصحبة القضاء، وهذه الوظيفة هي لثلاثة من القضاة الشافعي والحنفي والمالكي[٣]، وهذه الدار موضعها تحت القلعة يعرف بالطبلخاناه ، وقد بني دار العدل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري في سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م وصار يجلس بها لعرض العساكر في كل يومي اثنين وخميس[٤].

وكانت إجراءات ذلك المجلس تبدأ بأن يقرأ كاتب السر وموقع الدست[٥] ، وهو الذي يجلس في دار العدل ويقرأ القصص على السلطان، ويوقع عليها بأمر السلطان فاذا احتاج مراجعة القضاء راجعهم في ما يتعلق بالأمور الشرعية والقضايا الدينية وما كان متعلقاً بالعسكر فاذا كانت القصص في امراء الاقطاعات قرأها ناظر الجيش فاذا احتاج الى مراجعة في أمر العسكر تحدث مع الحاجب وكاتب الجيش[٦].

---

(١) الحنفي، الجواهر المضية، ج١ ، ص٦٣؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج١، ص٢٦٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ١٤٤ ؛ ابن تغري بردي ، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ج١، ص٢٨٧.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٢٧.

(٤) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٣٥٨.

(٥) الدست، عبارة عن كرسي متكون من أربعة كراسي لكتاب يكتبون بما يريد السلطان، ويضعون توقيعهم بدله بإذنه نيابة عنه، وترسل للتنفيذ. ينظر:دهمان، محمد أحمد: معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط١،دار الفكر،(بيروت : ١٩٩٠م) ، ص٧٥.

(٦) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٣٠.

ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة:

١- الحافظ الدمياطي (ت ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م):

عبد المؤمن بن خلف بن ابي الحسن بن شرف بن الخضر بن موسى الشيخ الامام الحافظ شرف الدين الشافعي ، ولد في سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م، أخذ العلم في دمياط وتفقه بها على يد الاخوين الامامين ابي المكارم عبد الله وابو عبد الله الحسين، وسمع بها فيها، وكان قد حفظ النحو في اصول الفقه للغزالي، وكتب بخطه كثيراً من الكتب والاجزاء، وكان من العلماء الذين تولوا وظيفة دار العدل ، واجتمع الناس على اقرائه بعلم الانساب واشتهر بالفضائل وانتفع به الناس(١).

٢- محمد بن احمد بن علي بن عبد الكافي بن تمام السبكي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م):

ولد في القاهرة في الثالث والعشرين من رجب سنة (٧٤٥هـ)، ويعد من ضمن العلماء الذين تولوا وظيفة دار العدل، وحفظ القرآن العظيم وقرأ النحو على الشيخ جمال الدين بن هشام، ودرس ايضاً بالسيفية والكهارية(٢)، وخطب بالجامع الطولوني(٣)، وكان شاباً ديناً عاقلاً، توفى في طاعون في القاهرة(٤).

رابعاً. وظيفة قضاء العسكر:

هي وظيفة قديمة جليلة كانت في زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان موضوعها أن صاحبها يحضر بدار العدل مع القضاة ويسافر مع السلطان إذا سافر(٥)، فكانا يتخصصون في أمور الجند من دون غيرهم كما كانوا ينظرون في القضايا الناشئة بين العسكر والمدنيين(٦).

---

(١) السبكي ، طبقات الشافعية ، ج١٠ ، ص١٠٣ ؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي المستوفي، ج٦، ص٣٦٧.

(٢) المدرسة الكهارية، تقع هذه المدرسة في درب الكهارية بجوار حارة الجودية. ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٧٨.

(٣) الجامع الطولوني، نسبة الى الأمير احمد بن طولون الذي أمر ببنائه سنة ٢٣٦هـ / ٨٥٠ م ويقع بموضع جبل يكثر فيضه وعلق فيه القناديل بالسلاسل وفرش فيه الحصر وحمل اليه صناديق المصاحف ونقل اليه القراء والفقهاء، وتم الفراغ منه في شهر رمضان سنة ٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م .ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٤، ص٣٩.

(٤) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٩، ص١٢٥.

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٣٦.

(٦) الحجي، حياة ناصر، صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك،ط١، دار القلم للنشر والتوزيع، (الكويت: ١٩٩٢م)، ص١٤٤.

ومن العلماء الذين تقلدوا هذه الوظيفة:

١- شمس الدين ابو عبد الله الحسيني الارموي الشافعي (ت ٦٥٠هـ/١٢٥٢م):

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد العلوي الحسيني الأرموي ، كان إماماً في الفقه والاصول، وناظراً تفقه على الصدر بن حمويه، فضلاً عن شرحه لكتاب المحصول[١]. تولى قاضي العسكر حتى اشتهر به فكان يذهب الى العراق مرسلاً من السلاطين، فقيل في حقه **((كان من كبار الائمة وصدور المصريين))**[٢].

٢- محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت ٧٤٢هـ / ١٣٤١م):

محمد بن محمد بن عبد الرحمن القزويني بدر الدين ابن القاضي جلال الدين خطيب جامع دمشق، تفقه ومهر في الخطابة قبل أن يلي ابوه قضاء القضاة في حياة المشايخ الكبار، وكان يتنقل بين مصر ودمشق في كل سنة فيقيم مدة ويرجع فكانت له بذلك وجاهة ، حتى تولى قضاء العسكر، وكان الأمر كله مفوضاً اليه، حتى وصف بأنه **((وكان وافر الحشمة جميل السير محسن التأدية للخطبة طيب النغمة))**[٣].

٣ . محمد بن اسحاق المناوي (ت ٧٦٥هـ / ١٣٦٣م):

القاضي تاج الدين محمد بن اسحاق بن ابراهيم السلمي ، وصف بأنه كان من القضاة العارفين بالمحاكمات ، فتولى قضاء العسكر في القاهرة ، وحكم بين المسلمين مدة طويلة[٤].

٤- القاضي شمس الدين الدميري المالكي (ت ٨١٣هـ / ١٤١٠م):

شمس الدين محمد بن احمد بن عبد الملك الدميري المالكي ، تولى العديد من الوظائف ومنها قضاء العسكر على مذهب الامام مالك في سلطنة الاشرف شعبان ، وكان من أَعيان الفقهاء النحاة القراء[٥].

خامساً. وظيفة بيت المال:

هي وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر وموضوعها التحدث فيما يتعلق ببيت المال ومشترياته من الاراضي والدور وغير ذلك، وما يجري هذا المجرى ولا يليها إلا أهل العلم والديانة، فتارة يكن دون المحتسب وتارة فوقه بحسب رفعة قدر كل منهما في نفسه[٦].

---

(١) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤٧٨.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص١٥ .

(٣) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص١٨٥.

(٤) السبكي ، طبقات الشافعية ، ج٩، ص١٢٧.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٦، ص٢٨٣.

(٦) القلقشندي ،صبح الاعشى، ج٤، ص٣٦-٣٧.

ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة:

١- القاضي ضياء الدين الشافعي (ت ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م):

محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن المناوي الشافعي ، ولد سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧ م واشتغل بالفقه فمهر به وأخذ عن علماء عصره ، تدرج في الوظائف المملوكية حتى آلت اليه وظيفة وكالة بيت المال ، فضلاً عن نيابة القاهرة ، وكان من القضاة الجياد الملازمين للخير الكثير[١].

٢- محمد بن عمر العلامي (ت ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م):

محي الدين محمد بن عمر بن عبد الوهاب بن خلف العلامي ، أخذ العلم عن علماء عصره حتى أصبح من القضاة المشهورين ، فأسندت اليه وظيفة نظر بيت المال بالقاهرة[٢].

٣- ابراهيم بن احمد الحنفي المعروف بابن الرعباني (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٦٥ م):

أبو اسحاق كمال الدين ابراهيم بن أحمد بن ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم بن محمد بن هبة بن محمد بن عبد الباقي الحلبي الحنفي ، ولد في حلب وفيها أخذ صنوف العلم ولاسيما الحديث النبوي الشريف ، ولعلمه وفضله أسمدت إِليهِ وظيفة بيت المال ونظر الدواوين في حلب، وصف بأنه كان رئيساً نبيلاً[٣].

سادساً. وظيفة الحسبة:

تعد الحسبة من الوظائف المهمة الرفيعة الشأن، التي يقع على المحتسب مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما ليس من خصائص الولاة والقضاة واهل الديوان وغيره، فكان عليه أن يأمر العامة بالصلوات الخمس في مواقيتها، ويعاقب من لم يصلِ بالضرب والحبس وتعهد الائمة والمؤذنين، فمن فرط في منهم فيما يجب من حقوق للإمامة او خرج عن الاذان المشروع الزمه ذلك، ويأمر المحتسب بالجمعة والجماعات ويصدق الحديث واداء الامانات وينتهي عن المنكرات من الكذب والخيانة، وما يدخل من تطفيف المكيال والميزان والغش في الصناعات والبياعات والديانات[٤].

---

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٥، ص٩.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٣٦٥.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٥.

(٤) ابن تيمية، احمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ/ ١٠٣٨م)، الحسبة في الاسلام او وظيفة الحسبة الحكومية، دار الكتب العلمية (القاهرة : ١٣١٨هـ)، ص١٦-١٧.

وتعد الحسبة من النظم الاسلامية المهمة في ضبط المجتمع في كافة جوانبه[١]، والمحتسب يتم تعيينه من قبل الامام أو نائبه للنظر في أحوال الرعية والكشف عن أمورهم ومصالحهم[٢]، وحظيت باهتمام العلماء وتطبيقهم لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣].

وعد المحتسب أحد أهم الموظفين، ومن شروط توليته للوظيفة أن يكون فقيهاً عارفاً بأحكام الشريعة ومواظباً على السنن، كذلك من ضمن اختصاصاته الاخرى المرور في الطرقات والاسواق ليقوم بأعماله ،فمنها ان يحمل الناس على المصالح العامة في البلاد، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين واهل السفن من الاكثار في الحمل وهدم المباني الآيلة للسقوط ومنع مخالفات المعلمين في المدارس، كالمبالغة في ضرب الصبيان ومراقبة الاسواق وما يجري بها من مكاييل وموازين الاطعمة والنقود من الذهب والفضة ونظافة المياه، بل ان يتردد على مجالس القضاة والحكام، ويمنعهم من الجلوس في الجوامع والمساجد للحكم بين الناس فربما دخل الرجل الجُنب والمرأة الحائض والصبي ومن لا يتحرر من النجاسة، كما ترفع فيه الاصوات[٤].

وكان المحتسب يحمل سوطاً ودرة ليعزر من يستحق التعزير[٥]، وانقسمت أعمال المحتسب تبعاً لاتساع او ازدياد الانشطة في المجتمع آنذاك، فقد وردت في المصادر التاريخية اشارات الى انواع مختلفة في اختصاصات الحسبة، فمنها ما هو مرتبط بحرفة معينة مثل حسبة الخبز، وحسبة الدخان وحسبة الطباخين، وأهل الصنائع كالحلواني ، ويبدو أن المحتسب العام كان مشرفاً على هؤلاء المحتسبين[٦].

وكانت وظيفة الحسبة قوية الصلة بالسلطة القضائية، ويمكن القول: إنها قضاء سريع، فكانت تسند الحسبة والقضاء الى الشخص واحد احياناً واذا كان عمل القاضي يتصف بشيء من البطئ ، فان عمل المحتسب قائم على أساس سري والبت في المخالفات وتوقيع العقوبات[٧].

---

(١) الماوردي، علي بن محمد (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨م) ، الاحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: احمد البغدادي،ط١، دار ابن قتيبة، (الكويت: ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص٣١٥ .

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٣١٥.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٠٠.

(٤) ابن بسام، محمد بن أحمد (ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧م) ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائي، منشورات دار الحداثة (بغداد: ١٩٩٠م)، ص١٧٣.

(٥) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣م) ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني (القاهرة : ١٩٤٦)، ص٩-١٠.

(٦) اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت ٧٦٠ هـ / ١٣٥٨م) ، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيط، ط١، (بيروت، ١٩٨٦م)، ص١١٧ .

(٧) اليوسفي، نزهة الناظر، ص٣٥٩.

وقد حرص بعض السلاطين على توافر شروط الوظيفة فيمن يرشح لها، فعندما سعى شهاب الدين أحمد بن الحاج علي الطباخ عند الأمير بشتاك[١] والأمير قوصون[٢] والأمير اقبغا[٣] في عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧، وقدم لهم الهدايا ليتحدثوا مع السلطان الناصر محمد في ولايته للحسبة، لم يقبل السلطان وقال هذا المنصب كبير ولا يمكن أن يكون الا لمن يعرف الشرع والاحكام[٤] . وكان المحتسب من أهم موظفي الدولة في عصر سلاطين المماليك حيث كان واسطة بين الحكام والمحكومين بحكم ما له من علاقة مباشرة بالسلطان والمجتمع ، ومثالاً على ذلك عندما طلب الناصر محمد بن قلاوون ضياء الدين يوسف بن خطب بيت الابار في عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م فوض اليه أعمال الحسبة بمصر، فوليها بعد امتناع شديد ثم بدأ عمله بسلسلة من الاجراءات الصارمة فنزل بصحبة شاد الدواوين وختم على شون الامراء كلها لحين قدوم الغلال الجديدة[٥].

ولعل من نافلة القول أن الحسبة في العصر المملوكي الاول (دولة المماليك البحرية) كانت في الطبقة الاولى من الوظائف الدينية ، فقد عم نفعها جميع شرائح المجتمع ، إذ أن المحتسب كان يباشر مهامه على أكمل وجه في سبيل المحافظة على الآداب العامة ، والدور الاقتصادي في مراقبة أصحاب المهن والحرف[٦] .

ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة:

١- ابن الرفعة (ت ٧١٠هـ / ١٣١٠م):

أحمد بن محمد بن علي بن الشيخ الرفعة المعروف بابن الرفعة الامام العلامة، شيخ الاسلام شيخ الشافعية في عصره برع في الفقه واصول العربية، ودرس وافتى وانتفع به عامة الطلبة الشافعية، انتهت اليه رئاسة مذهبه في عصره، وكان ذكياً بارعاً متبحراً في المذهب وفروعه وصنف وشغل عدة سنين، ولي الحسبة في مصر وظل مواظباً على ذلك إلى أن توفي[٧].

---

(١) بشتاك ، الامير سيف الدين الناصري ، نسبة الى السلطان الناصر قلاوون الذي اشتراه وقربه اليه وأعلى منزلته حتى سماه بالأمير ، كان شديد المعاملة لا أحد يجرؤ على مواجهته ، كانت له تدخلات في المنافسة على السلطة فسجن ومات في سجنه سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١م.ينظرالصفدي،الوافي بالوفيات، ج١٠، ص ٨ .

(٢) قوصون ، الامير سيف الدين الساقي الناصري ، كان من خواص السلطان الناصر وفضله على غيره من الامراء ، له مآثر حسنة كبناء الجوامع والخانقاه ، لكن حساده قاموا بعمل المكائد عليه حتى تمكنوا منه فمات في السجن سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م .ينظر: الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٢٤ ، ص ٢٠٧.

(٣) أقبغا، الامير سيف الدين الناصري ، من أمراء السلطان الناصر قلاوون ، تدرج في الخدمة حتى أصبح أمير مائة، وكانت له يد في المنافسة على السلطة بعد وفاة الناصر حتى مات في سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م. ينظر :الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٧٩.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢١٦.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٠٠.

(٦) أبو زيد، سهام مصطفى: الحسبة في مصر الاسلامية من الفتح الاسلامي الى نهاية العصر المملوكي، الهيئة المصرية للكتاب (القاهرة : ١٩٨٦م)، ص٨٩.

(٧) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٧، ص٢٥٧؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج٢، ص٨٣.

٢- محمد بن عثمان بن يوسف الآمدي (ت ٧٢٤هـ / ١٣٢٣م):

بدر الدين محمد بن عثمان بن يوسف الآمدي المصري الحنبلي ، ولد بمصر وتفقه بها وحفظ المتون، وكانت له صحبة مع بعض الامراء المماليك ، من خلالها تولى العديد من الوظائف منها الاوقاف والخطابة في حلب ن وكذلك وظيفة الحسبة في مدينة دمشق ، وبقي في منصب الحسبة الى أن مات(١).

٣- محمد بن علي السكري المصري (ت ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩م):

تاج الدين محمد بن علي بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن السكري المصري الشافعي، من العلماء المعتبرين ، سمع من جماعة من العلماء في مصر، وتولى العديد من الوظائف أبرزها وظيفة الحسبة القلعة ، وكان يخطب بالسلطان بيبرس يوم العيد(٢).

٤- علي بن ابراهيم الاطروش الحنفي (ت ٧٥٨هـ / ١٣٥٦م):

علاء الدين علي بن ابراهيم بن أسد المصري الحنفي الاطروش ، من العلماء المعروفين، سمع الحديث على جماعة من العلماء وحدث عن آخرين، تنقل بين الوظائف، فتولى حسبة دمشق سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٢ م وكان فيها مهيباً ونزيهاً، ثم تولى حسبة القاهرة سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م، وبقي يتنقل بين حسبة دمشق والقاهرة حتى مات وهو محتسب القاهرة(٣).

٥- ضياء الدين يوسف أبي بكر الشامي (ت ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م):

ضياء الدين يوسف أبي بكر بن محمد الشهير بالضياء ابن خطيب بيت الابار الشامي، كان مشهوراً بكفاءته وعلمه ، حتى أنه قبل وظيفة الحسبة بعد الحاح السلطان الناصر قلاوون سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م(٤) ، وكان مثالاً للكفاءة والعفة من خلال عمله، وأول ما بدأ به نزوله لمصر يصحبه شاد الدواوين وقام بختم شون الامراء كلها لحين قدوم الغلال، واشهد السماسرة والامناء والكيالين أن لا تفتح شونة(٥) إلا بأذنه، فضلاً عن إجباره للطحانين ببيع الاردب(٦) بثلاثين درهماً، فلم يجرؤ أَحدٌ على البيع بأكثر من ذلك(٧).

---

(١) الصفدي ، الوافي بالوفيات، ج ٤ ، ص٦٦؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٥، ص٢٩٧.

(٢) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٥، ص٣٢١.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١.

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٨ ، ص ٣٨٦ .

(٥) شونة، مخزن الغلال الذي بناه السلطان صلاح الدين الايوبي ، وهو مكان مخصص لخزن الغلال الواردة من جهة الصعيد .ينظر الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني (ت ١٢٠٥هـ-١٧٩٠م): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستار احمد فراج، (الكويت: ١٩٦٥م) ، ج ٣٥ ، ص٢٩٨.

(٦) الاردب، مكيال مصري للحنطة يتألف من ٦ ويبات كل ويبة ٨ أقداح ، وهو ما يعادل ٦٩ كغم من القمح . ينظر: هنتس، فالتر، المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: الدكتور كامل العسلي (عمان: ١٩٧٠م)، ص٦٢.

(٧) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٠٠.

٦- ابراهيم بن عدنان بن جعفر الشريف الحسيني الدمشقي (ت ٧٩٧هـ/١٣٩٤م) :

أبو اسحاق برهان الدين ابراهيم بن عدنان بن جعفر بن محمد بن عدنان بن الحسن الشريف الحسيني، نقيب الاشراف بدمشق ، سمع في دمشق على عدد من العلماء، وتولى حسبة دمشق وحمدت سيرته فيها، حتى قيل عنه "كان رئيساً نبيلاً حشماً فخراً من بيت سؤدد ورئاسة"(١).

سابعاً. وظيفة ناظر الجيش(٢):

يُعد ناظر الجيش مسؤولاً عن صرف الرواتب الجارية في كل يوم، أو كل سنة من اللحم والتوابل والخبز والشعير والزيت والشمع والسكر، وكانت هذه الرواتب يمنحها السلطان للامراء والممالك على سبيل النفقة وليس لها علاقة بما يمنحونه من اقطاع(٣). ولديوان الجيش أهمية كبيرة في العصر المملوكي ، إذ اعتنى به السلاطين لضبط الجيش والمؤسسة العسكرية بصورة عامة ، فتم فصله الى قسمين يختصان بالأمور المالية ، الأول خاص بجيش مصر ، والثاني بجيش الشام، ويشرف على كل منهما موظف كبير يسمى مستوفي الجيش ويختص بمصادر الانفاق على الجيش المملوكي(٤) .

ومن أشهر العلماء الذين شغلوا هذه الوظيفة:

١- الرقي رشيد بن كامل (ت ٧١١هـ / ١٣١١م):

الشيخ رشيد الدين رشيد بن كامل الحرشي الرقي الشافعي، من الفقهاء المشهورين في الشام ، كانت له مشاركات متعددة في وظائف الدولة ولعل من أهمها وظيفة نظر جيش دمشق، وكان ذا عقل وصيانة(٥).

---

(١) المقريزي، درر العقود الفريدة، ج١، ص٦٩؛ ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: حسن حبشي (القاهرة: ١٩٦٩م)، ج١، ص٤٩٦.

(٢) ناظر الجيش، يطلق عليه نقيب الجيش، إذ يعهد اليه حراسة السلطان في اثناء سفره او في اثناء خروجه في المواكب، ويساعده موظفون كبار، وينوب عن الناظر في تصريف شؤون الديوان.ينظر: ابن مماتي، الأسعد بن مماتي، (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م) ، قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوربال عطية ، مكتبة مدبولي، (القاهرة: ١٩٩١)، ص٢٩٨ .

(٣) ابن الصيرفي، انباء الهمر، ص٣٣-٣٦.

(٤) بيبرس المنصوري (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م) ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق : دونالد. ريتشاردز، المؤسسة الألمانية للبحث العلمي، (بيروت: ١٩٩٨م)، ص١٠٣.

(٥) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٥، ص٣٥٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص٤٧.

٢- محمد بن يوسف بن أحمد بن عبد الدائم (ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦م):

محب الدين محمد بن يوسف بن أحمد بن عبد الدائم الحلبي المصري ، ولد في مدينة القاهرة، أخذ العلم على مجموعة من العلماء في مختلف الفنون ، وترقى في الخدمة حتى ولي نظر الجيش في مصر، حتى فاق من قبله من الاقران ومن الاكابر فضلاً ومروءة[١] . وأثنى عليه المقريزي[٢] في وظيفته قائلاً **((فَبلغ فِيهِ من نُفُوذ الْكَلِمَة وشهرة الذّكر وارتفاع الْقدر مبلغاً عَظِيماً فِي عدَّة دوَل))**. كذلك ذكره في موضع آخر مثنياً عل سيرته في وظيفته ومآثره **((فإنه كان صدراً من صدور الزمان ، ومفخراً يفتخر به الاوان ، لما اشتمل عليه من أنواع الرياسة كالعلم بالقراءات والفقه والنحو والمعاني والبيان، مع كثرة الافضال وجزيل العطاء وكثرة النوال، وبذل اليد بالهبات والصلات ، واستمرار الانعام والصدقات ، وقضاء الحاجات لقاصديه، والقيام التام مع المترددين إليهِ وسائليه ، بحيث تفرد بالسؤدد مصراً وشاماً عدة سنين ، ولم يخلف بعده من يدانيه، وكيف بمساويه؟!))**[٣].

ثامناً. وظيفة نقابة الاشراف:

هي من الوظائف المهمة التي شغلها العلماء في الدولة المملوكية، وهي وظيفة شريفة مرتبة نفيسة، موضوعها التحدث على ولد علي بن ابي طالب (عليه السلام) من فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهي المراد بالاشراف في النص على انسابهم والتحدث في اقاربهم والأخذ على يد المعتدي منهم ونحو ذلك، وكان يعبر عنها في زمن الخلفاء المتقدمين بنقابة الطالبيين[٤]. وقد أطلق على صاحبها في العصر المملوكي بنقيب السادة الاشراف ، وله المجلس السامي والتوقيع[٥] .

ومن العلماء الذين شغلوا هذه الوظيفة:

١. بدر الدين الحسن بن عز الدين المعروف بأبن الحلبي (ت ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م):

الحسن بن عز الدين أحمد بن محمد الحسيني المعروف بأبن الحلبي ، تولّى نقابة الاشراف سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م[٦].

---

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٦ ، ص٤٥.

(٢) السلوك، ج٥، ص٢٤.

(٣) درر العقود الفريدة ، ج٣، ص٣٦٩ .

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٣٧-٣٨؛ الحجي، السلطان محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، تحقيق ودراسة وثيقة وقف سرياقوس، ط١، مكتبة الحلاج (الكويت، ١٩٨٣م)، ص٥٩.

(٥) الفاخري, بدر الدين بكتاش (ت ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) ، تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق رودلف سلي، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة : ١٩٨٧م)، ص١٩٢ .

(٦) ابن رافع ، تقي الدين محمد بن هجرس (ت٧٧٤ هـ / ١٣٧٢م) ، الوفيات ، تحقيق صالح مهدي باس والدكتور بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ (بيروت : ١٩٨١ م)، ج١، ص٤٢٦.

٢- الشريف شرف الدين ابو الحسن الحسيني (ت ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م):

هو علي بن الحسن بن السيد شرف الدين الحسيني، ولد سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩٢م ، كان رجلاً فاضلاً اديباً ، تولى نقابة الاشراف في الديار المصرية ، فضلاً عن التدريس بالمشهد الحسيني(١).

٣. الحسين بن محمد الحسيني المعروف بأبن قاضي العسكر (ت ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠م):

شهاب الدين الحسين بن محمد بن الحسين الحسيني الشافعي المعروف بأبن قاضي العسكر، من الاشراف الذين تولوا النقابة سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م(٢).

تاسعاً . وظيفة نظر الاحباس المبرورة:

عرفها القلقشندي(٣) بقوله: **((هي وظيفة عالية المقدار وموضوعها أن صاحبها يتحدث في الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس من الارضين المفردة من نواحي الديار المصرية وما على سبيل البر والصدقة لأناس معينين)).**

وكان عمل هذا الديوان قد نشأ مع شراء بعض رجال البِر بعض الاراضي في جهات مختلفة وحبسوها على الانفاق على وجوه البر, ولم يكن هذا الديوان موجوداً من قبل ، ويعد من انشاء الدولة المملوكية(٤).

ومن العلماء الذين شغلوا هذا المنصب:

١. أبو بكر بن عبد الله بن أحمد النشائي (ت ٧١٦هـ / ١٣١٦م):

ضياء الدين أبو بكر بن عبد الله بن أحمد بن منصور بن شهاب النشائي ، عرف بحسن سيرته فقيهاً فاضلاً إماماً في الفرائض ، ولهذه الاسباب تم توليته في نظر الاحباس في مدينة القاهرة وكان مشكور السيرة في ذلك(٥).

٢. أحمد بن أبي بكر بن عرام الاسواني الاسكندراني الشافعي (ت ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م):

من العلماء المشهورين ، أخذ العلم عن جماعة من علماء مصر، ومن شدة تقواه وورعه تولى نظر الاحباس في مدينة الاسكندرية(٦). وصف [انه كان مقداماً متديناً(٧) .

---

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ج١٠، ص١٣٧.

(٢) ابن فهد، أبو الفضل تقي الدين محمد بن محمد (ت ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م) ، لحظ الالحاظ بذيل طبقات الحفاظ ،ط١، دار الكتب العلمية ، (بيروت : ١٩٩٨م) ، ص٨٩.

(٣) صبح الاعشى، ج٤، ص٣٨.

(٤)الانصاري, ناصر، المجمل في تاريخ مصر، النظم السياسية والإدارية، ط١، دار الشروق (القاهرة: ١٩٩٣م)، ص١٧٦.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥٢٠.

(٦) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة ، ج١، ص٦٩.

(٧) الصفدي، الوافي بالوفيات ، ج ٦ ، ص١٦٨.

٣. أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الحلبي (ت ٧٨٨ هـ / ١٣٨٥م):

أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر بن عبد الله بن عبد الواحد بن طاهر بن يوسف بن النصيبي الحلبي، سمع من علماء مدينته ، وكان كثير التلاوة، تولى نظر الاحباس في حلب، وكان فيها نزيهاً عفيفاً[١].

٤. تاج الدين محمد بن محمد المليجي (ت ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م):

كان معروفاً بتدينه وحبه لفعل الخير، لذلك لقب بصائم الدهر ، عين من قبل السلطان صلاح الدين حاجي في وظيفة ناظر الاحباس ومحتسب القاهرة، وكان خيراً ديناً كثير النسك، قليل الكلام، بهيج الزي، جميل الهيئة، يسرد الصوم دائماً[٢].

عاشراً . وكالة بيت المال :

هي من الولايات الدينية والوظائف الجليلة التي لا يتولاها إلَا صاحب العلم والديانة، تختص هذه الوظيفة التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته، سواء كانت أراضي وغيرها[٣].

واختص متوليها بالإشراف على الوصايا التي ترفع اليه فضلاً عن إِشرافهِ على أَموال الودائع واملاك بيت المال وهذه الوظيفة أسندها سلاطين المماليك لعلماء مشهورين منهم:

١. القاضي قطب الدين محمد بن علي السنباطي (ت ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م):

قطب الدين محمد بن علي بن عبد الصمد السنباطي ، قاضي القضاة المشهور في القاهرة ، أسندت اليه وظيفة وكالة بيت المال في القاهرة[٤]. وذكر أنه كان يرتب السبكي صاحب بقات الشافعية عنده في الحكم لما كان يحضر عنده من القضايا الخاصة ببيت المال[٥].

٢. القاضي مجد الدين المصري (ت ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م):

مجد الدين حرمي بن قاسم بن يوسف الفاقوسي العامري الفقيه الشافعي، كان من الفقهاء المشهورين أخذ الفقه عن مجموعة من العلماء حتى برع فيه ، وأوكل اليه السلطان الظاهر بيبرس وظيفة وكيل بيت المال وعرف عنه في وظيفته بأنه كان وجيهاً مبذول الجاه لمن يقصده، ولشدة تقواه وأمانته قل أن يموت أحد من الأمراء الأكابر إلا وأسند وصيته اليه[٦].

---

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ، ج١، ص١٩٨.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٥، ص٣٦١.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٣٧ .

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٣.

(٥) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ، ج٥، ص٢٦٤ .

(٦) الصفدي، الوافي بالوفيات، ، ص٢٦٥ ؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٥، ص٥٨.

٣ . ابراهيم بن أحمد بن ابراهيم المعروف بابن الرعباني (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م):

كمال الدين ابراهيم بن أحمد بن ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم الحلبي الحنفي المعروف بأبن الرعباني ، أخذ العلم من علماء حلب حتى عرف بالعالم ، وتولى عدة وظائف منها وظيفة وكالة بيت المال في حلب ، وعرف عنه أنه كان رئيساً نبيلاً[١].

حادي عشر. وظيفة المواريث الحشرية:

هو مال من يموت وليس له وارث خاص، يتولى هذا الناظر من قبل السلطان بتوقيع شريف ومعه مباشرون ويقوم هذا الموظف بالإشراف على هذه الأموال فضلاً عن كتابة تعريف بمن يموت في القاهرة والفسطاط [٢] .

١- رشيد الدين الحرشي الرقي الشافعي (ت ٧١١هـ):

رشيد الدين رشيد بن كامل الحرشي الرقي ، من القضاة المعروفين في حلب ، تولى وظيفة المواريث الحشرية في حلب بكل أمانة وهمة حتى قيل عنه ما قصر في أخذ ولا طلب، وكان موصوفاً بالعقل والصيانة عن الحرام، وله نظم ونثر[٣].

٢- سليمان بن جعفر الاسنوي (ت ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م):

محيي الدين سليمان بن جعفر الاسنوي، من الفقهاء المشهورين في الفتوى والتدريس، أسندت اليه وظيفة المواريث الحشرية[٤] .

ثاني عشر. وظيفة الإمام

هو الذي يؤم المسلمين في الصلوات الخمس المفروضة ، وصلاة التراويح في شهر رمضان وصلاتي الكسوف والخسوف ، وقد اشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون مشهوراً بالخير والصلاة، حافظاً لكتاب الله، حسن الصوت، وأن يكون من أهل العلم والدين، عالماً بأحكام العبادات، ومحسن التلاوة[٥].

ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة:

١- زين الدين الامام الحنفي (ت ٦٧٧هـ) :

زين الدين أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن أبي الفرج بن ابي عبد الله بن السديد الدمشقي الحنفي، العلامة ، كان اماماً بالمقصورة الكندية الشرقية بجامع دمشق، وكان عالماً بفنون متعددة

---

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ، ج١، ص٥.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٣، ص٥٣٢.

(٣) الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرون،ط١، دار الفكر المعاصر، ط١ (بيروت : ١٩٩٨م)، ج٢، ص٣٧١ .

(٤) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٨٣ .

(٥) الصيرفي، علي بن داود الخطيب (ت ٩٠٠هـ /١٤٩٤م) ، أنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق: حسن حبشي (القاهرة : ١٩٧٠م)، ص١٩٤.

من العلوم، تصدر للافتاء والتدريس مدة طويلة وانتفع به الطلبة لاسيما في العربية فقد كان فارس في هذه اللغة، سمع من المحدث عمرو بن بدر الموصلي مسند أبي حنيفة (رضي الله عنه)، وابن ابي البلخي وروى عنه المزي وابن العطار[١].

٢- أحمد بن محمد بن الخضر الدمشقي الحنفي (ت ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م):

أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن الخضر بن مسلم الدمشقي الحنفي ، الامام الفقيه المفتي ، ولد في دمشق سنة ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م وسمع بها من أبي بكر بن عبد الدائم وعين المطعم وهدية بنت عسكر، ودرس وافتى وحدث وكان إماماً عالماً بالفقه والأصول[٢]. وصفه ابن حجر العسقلاني[٣] بالقول **((الامام مفتي المسلمين))**.

٣- محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله الصالحي الحنبلي (ت ٧٨٩هـ/١٣٨٩م) :

أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن ابراهيم المقدسي الاصل الصالحي الحنبلي، ولد بفسح قاسيون ظاهر دمشق ٧١٣هـ/ ١٣١٣م، أجاز له جماعة من أهل مكة وبيت المقدس ومصر وبغداد، وكان مكثراً شيوخاً وسماعاً، وطلب الحديث بنفسه فقرأ واجاد وخرج وأفاد، وكان اماماً عالماً حافظاً متقناً زاهداً متقشفاً منقطع القرين، حتى أنه لقب بالإمام الصامت لكثرة صمته عن فضول الكلام، وكان له حظ في قيام الليل والتعبد[٤].

٤- أحمد بن علي بن محمد بن أيوب الدمشقي الحنفي (ت ٧٩٨هـ/١٣٩٨م):

أحمد بن علي بن محمد بن أيوب بن رافع القلعي الدمشقي الحنفي، ولد في سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م، سمع من أبي بكر بن الرضي وزينب بنت الكمال، كان إمام القلعة[٥].

ثالث عشر. وظيفة الخطابة:

نسبة إِلى الخطيب الذي يقوم في الخطابة في المنشآت الدينية أيام الجمع والعيدين وفي الكسوف والخسوف ويشترط في الخطيب أن يكون عارفاً بأمور الخطابة محسناً لتأديتها[٦].

وعلى الرغم من كثرة الجوامع والمساجد بالديار المصرية والشامية إلّا أن ولاية السلطان للخطباء كانت في الجوامع الكبرى مثل جامع القلعة، وكان غالباً ما تسند الخطابة به لقاضي

---

(١) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج١، ص٣٨.

(٢) المقريزي، درر العقود الفريدة، ج١، ص١٧٨.

(٣) الدرر الكامنة، ج١، ص٣١١ .

(٤) المقريزي، درر العقود الفريدة، ج٣، ص١٨٤ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر، ج١، ص٣٤٤ .

(٥) المقريزي ، درر العقود الفريدة، ج١، ص٣٤٢.

(٦) محمد، محمد أمين، الاوقاف والحياة الاجتماعية، ط١، (القاهرة : ١٩٨٠)، ص١٨٧.

قضاة الشافعية حيث يصلي فيه السلطان[١]، وإذا ما سمع السلطان أحد الخطباء واعجبه، قرره في الخطابة بجامع القلعة[٢].

ومن العلماء الذين شغلوا هذه الوظيفة:

١- ابن شيخ الاسلام عز الدين عبد السلام (ت ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م):

أبو اسحاق ابراهيم بن عبد العزيز بن عبد السلام، بن شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام السلمي الدمشقي، تولى خطابة جامع العقيبة[٣] ، حتى أنه كان يلبس ثياباً قصيرة واذا خطب بكى، فضلاً عن اعطائهِ للوعظ[٤].

٢- عبد الرحمن بن محمد بن ابراهيم المقدسي الحنبلي (ت ٧٧٣هـ/١٣٧٣) :

أبو الفرج بن أبي عبد الله عبد الرحمن بن ابراهيم بن عبد الله بن الشيخ أبي عمر المقدسي الحنبلي ، ولد بسفح قاسيون في رجب سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م وسمع من عيسى بن محمد والحسين بن علي الخلال وفخر الواعظي، تولى خطابة الجامع المظفري[٥] ، وكانت له اليد الطولى في علم الفرائض، وله حظ من الخير والعبادة [٦].

٣- اسماعيل بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن صخر الكناني (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٦):

أبو الفداء بن أبي اسحاق اسماعيل بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن صخر الكناني الحموي الاصل ، ، ولد في شوال سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، سمع بمكة من الرضي الطبري، وبالقاهرة من أبي محسن الواني ومن الجلال الدلاصي خطيب الجامع الازهر، وحدث وسمع منه الفضلاء ، الامام المفتي خطيب المسجد الاقصى ، وبقي في وظيفته حتى وفاته في بيت المقدس في شهر ربيع الاول من السنة نفسها[٧].

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٣٩.

(٢) ابن اياس، محمد بن احمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة: ١٩٦٣م) ، ج٤، ص٣٩.

(٣) جامع العقيبة، أنشأه الملك الاشرف موسى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤م في مدينة دمشق وكان قبل ذلك مكاناً للفواحش والخمر، لذلك أطلق عليه جامع التوبة .ينظر: النعيمي، عبدالقادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م) ، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٩٠م) ، ج٢، ص٢٢٦ .

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات ، ج٦، ص٣٣؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج١، ص١١٢.

(٥) الجامع المظفري، نسبة الى مظفر الدين صاحب أربيل ، قام ببنائه رجل اسمه الشيخ أبو عمر في جبل قاسيون ، فلما بلغ مظفر الدين ما قام به الرجل من الانفاق في سبيل بناء الجامع ، أرسل له الاموال الكافية لبنائه.ينظر: الذهبي ، تاريخ الاسلام، ج٤٢، ص٤٧.

(٦) ابن رافع، الوفيات، ج٢، ص ٢٨٧؛ المقريزي، درر العقود الفريدة، ج٢، ص٢٥٥.

(٧) المقريزي، درر العقود الفريدة، ج١، ص٣٩٨ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر، ج١، ص٨٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب, ج٨ ، ص٤١٦.

رابع عشر. وظيفة التدريس:

وهي من الوظائف التي قام بها فريق من العلماء في شتى العلوم لاسيما الدينية، مثل التفسير والفقه والحديث و غيرها من العلوم ، وقد انتشرت أماكن التدريس بمصر والشام، ولم تكن قاصرة على المدارس بل قامت في الجوامع والمدارس[١]، وكان السلطان يعين كبار المدرسين في عامة العلوم بالمدارس الكبرى، كالمدرسة الصلاحية[٢] والمدرسة المنصورية[٣] بالبيمارستان المنصوري بين القصرين ، وقد اشترك كلاً من النساء والرجال في تلقي الدروس وحضور مجالس الوعظ ، فقد جلس كل منهم في مكان منفصل عن الاخر، وعندما ينفض المجلس يخرج الرجال قبل النساء ويذهبون في طريق، ثم تخرج النساء بعدهم ويذهبون في طريق آخر[٤].

وشارك أيضاً في انجاز العملية التعليمية فريق من الطلبة النابغين، وخصصت لهم الرواتب ويطلق على هؤلاء الطلبة المعيدون، وكان عليهم إعادة الدرس وتبسيطه حتى يسهل فهمه على باقي الطلبة[٥].

ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة:

١. ابو العباس الانصاري (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م):

أحمد بن عمر بن ابراهيم بن عمر، الشيخ الامام ابو العباس الانصاري القرطبي المالكي المحدث المدرس الشاهد، ولد بقرطبة سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م وسمع بها وقدم مصر وحدث بها، واختصر الصحيحين، ثم شرح مختصر مسلم وسماه المفهم، وأتى بأشياء مفيدة، وكان بارعاً في الفقه العربي، عارفاً بالحديث ومن مصنفاته كتاب كشف القناع عن الوجه والسماع، أجاد فيه وأحسن وله قدرة على توجيه المعاني بالاحتمال[٦].

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٣٩.

(٢) المدرسة الصلاحية،تقع بجوار تربة الامام الشافعي، انشأها السلطان صلاح الدين الايوبي في سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م ، يقال لها تاج المدارس وهي أعظم مدارس الدنيا على الاطلاق لشرف جوارها الامام الشافعي ولأن بانيها السلطان صلاح الدين ، أوكل التدريس فيها للشيخ نجم الدين الخبوشاني.ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٥٧ .

(٣) المدرسة المنصورية، تقع هذه المدرسة داخل باب المارستان الكبير بين القصرين في القاهرة ، انشأها المنصور قلاوون سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م ورتب بها دروساً أربعة لطوائف الفقهاء الاربعة ، ودرساً للطب. ينظر :المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٤، ص٢٢٦.

(٤) ابن بسام ، نهاية الرتبة، ص١٦٣، ٢١١.

(٥) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرون، ط١، (القاهرة: ١٩٤٨م)، ص٣٤؛ القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٣١.

(٦) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج٢، ص٤٤.

٢. القاضي شمس الدين الدمشقي (ت ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦م):

شمس الدين علي بن محمود بن علي بن عاصم الشهرزوري الدمشقي، من الفقهاء المتبصرين بأحوال الفقه، تولى التدريس بالمدرسة القيمرية[١] بشرط واقفها له ولذريته، فدرس بها إلى أن توفي[٢].

٣. أحمد بن عبد السلام الشافعي (ت ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م):

قطب الدين أبو المعالي أحمد بن عبد السلام بن المطهر بن أبي سعد بن عصرون التميمي الشافعي، سمع على طائفة من أهل العلم ، وأجازوا له ، تولى التدريس في مدرستي الامينية[٣], والعصرونية[٤], في مدينة دمشق[٥].

٤. الزواوي المقرئ (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م):

عبد السلام بن علي بن عمر بن سيد الناس، العلامة زين الدين ابو محمد الزواوي المالكي المقرئ شيخ القراء والمالكية بالشام، ولد سنة ٥٨٩هـ /١١٩٣م، وقدم القاهرة سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م، وقرأ على المشايخ حتى برع في المذهب، وافتى ومارس وظيفة التدريس، وكان ممن جمع بين العلم والعمل، وولي قضاء المالكية بدمشق ثم عزل نفسه من القضاء، توفي في دمشق[٦].

٥ . رشيد الدين الفارقي (ت ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م):

الشيخ الامام العلامة رشيد الدين عمر بن اسماعيل بن مسعود الفارقي الشافعي ، كان منفرداً في فنون العلم الكثيرة مثل النحو والادب والحساب والفلك, تولى التدريس بالمدرسة الظاهرية[٧]، حتى توفي بها عن عمر التسعين[٨].

---

(١) المدرسة القيمرية، نسبة الى الامير ناصر الدين أبو المعالي الحسين بن عبد العزيز القيمري، الذي بناها في سوق الحريميين، وأوقفها على القاضي الشهرزوري . النعيمي، الدارس، ج١، ص٣٣٥ .

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٥٢٧.

(٣) المدرسة الامينية، تقع قبالة باب الزيادة الذي هو أحد أبواب الجامع الاموي الذي كان يسمى باب الساعات، وهي أول مدرسة بنيت في دمشق للشافعية بناها أتابك العسكر أمين الدولة سنة ٥٣٠هـ / ١١٥٣٠م. ينظر :النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١٣٣.

(٤) المدرسة العصرونية ، تقع شرقي القلعة بمحلة الذهب ، خصصت لتدريس الشافعية . النعيمي ، الدارس، ج١، ص٣٠٧.

(٥) الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط٢ مطبعة حكومة الكويت (الكويت: ١٩٦٠م)، ج٣، ص٣٢٩.

(٦) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج٧، ص٢٦٥.

(٧) المدرسة الظاهرية ، نسبة للسلطان الظاهر بيبرس الذي أنشأها في سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢م، ورتب فيها لتدريس الشافعية والحنفية ، وكذلك لتدريس الحديث الشريف والقراءات ، فضلاً عن أنه أوقف لها خزانة كتب.ينظر: السيوطي ، حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٦٤ .

(٨) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٦٢٧ .

٦. ابن النقيب المقدسي (ت ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م):

جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان بن حسن البلخي المقدسي ، من العلماء الذين قدموا مصر في العصر المملوكي وتلقى العلم على يد العلماء ، وأقام مدة في الجامع الازهر حتى تولى التدريس بالمدرسة العاشورية[١] في القاهرة ، وكان مشتهراً بالتأليف ، ناسكاً عابداً زاهداً[٢] .

٧. محمد بن عبد الصمد السنباطي (ت ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م):

قطب الدين محمد بن عبد الصمد بن عبد القادر السنباطي ، ولد سنة ٦٥٣هـ /١٢٥٥م، وتفقه بالظهير القزويني وتقي الدين ابن رزين وسمع من الدمياطي، وقد افتى ومارس وظيفة التدريس، وكان كثير النفع للطلبة، وكان ديناً خيراً حسن التعليم ، تولى التدريس في مدرستي الفاضلية[٣], والحسامية[٤]، وعمل أحكام المبعض وتصحيح التعجيز[٥].

٧. يوسف بن ابراهيم الصالحي الشافعي (ت ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧م):

جمال الدين يوسف بن ابراهيم بن جملة المحجي الصالحي الشافعي، قاضي القضاة الذي تفقه على مجموعة من الفقهاء وأجازوا له، تمَّ تكليفه بالتدريس في المدرسة الشامية بدمشق، فتميز في تدريسه مع قوة النفس وكثرة الفضائل[٦].

٨. علي بن أبي بكر الشافعي (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م):

أبو الحسن زين الدين علي بن أبي بكر بن علي المعروف بابن اليونيني البعلبكي الشافعي، برع في الفقه، وأفتى ودرس، وقدم حماه وسكنها، وولي بها التدريس حتى مات بها[٧].

٩. أحمد بن عثمان بن عيسى الشافعي (ت٧٨٧هـ / ١٣٨٥م):

نجم الدين أحمد بن عثمان بن عيسى بن الحسن بن عبد المجيد الياسوفي الدمشقي الشافعي، ولد سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م ، واشتغل بعد سنة سبعين فقد قرأ الحديث، وتفقه بالعماد

---

(١) المدرسة العاشورية، تقع بحارة زويلة، كانت بالأصل، داراً لشخص يهودي فاشترته منه الست عاشوراء بنت ساروج الاسدي، وأوقفتها على الحنفية، وكانت من الدور الحسنة.ينظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٤، ص٢٠٨.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٤٦٧ .

(٣) المدرسة الفاضلية، تسمى دار الحديث الفاضلية تقع بطريق الكلاسة ، نسبة للقاضي الفاضل الذي كان له الفضل في انشائها. النعيمي، الدارس، ج١، ص٦٧.

(٤) المدرسة الحسامية ، نسبة الى حسام الدين لاجين الذي أمر ببنائها ، وهي تقع بمقبرة العوينة ظاهر دمشق ، ويطلق عليها المدرسة الشامية البرانية ، وقد عمل أنواع البر فيها. النعيمي، الدارس، ج١ ، ص٢٠٩.

(٥) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص١٦.

(٦) الذهبي، العبر، ج٤ ، ص١١١ .

(٧) المقريزي ، درر العقود الفريدة ، ج٢، ص٥٢٣.

الحسباني، فمهد في الفقه والاصول، وسمع من اصحاب الفخر ابن السنجاري، ونسخ كتب كثيرة، ودرس بالدماغية[١] في دمشق، وكان يوصف بسرعة الادراك وقوة المناظرة[٢].

وارتبطت وظائف اخرى مهمة متصلة بوظيفة التدريس وكانت توكل الى موظفين من مهامهم الرئيسية هو الحفاظ على هذا الكيان المتكامل، وتأتي على رأس هذه الوظيفة، وظيفة النظر، وتعد من الوظائف التي ترتبط بالمؤسسة التعليمية، وسمي صاحبها بالناظر وهو من ينظر في الاموال وينفذ تصرفاتها وترفع اليه حساباتها لينظر فيها، والناظر مأخوذ اما من النظر هو رأي العين وهي بمعنى الرعاية والادارة، اما النظر الذي بمعنى التفكير فيما فيه المصلحة من ذلك ويختلف باختلاف ما يضاف اليه كناظر الجامع وناظر المال وناظر الجيش[٣].

فالناظر يكون هو المسؤول المباشر عن مالية المؤسسة التعليمية ويفسر أهمية هذه الوظيفة تولي السلطان والمنصور قلاوون نظر البيمارستان المنصوري بنفسه، ثم حمله لاولاده من بعده[٤]، وتولى قضاة مصر النظر على المدرسة والقبة المنصورية وحمله بعده لأولاده وذريته[٥].

وتطرق القلقشندي[٦] عن مرسوم صادر عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتقليد القاضي جلال الدين القزويني (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية وظيفة النظر على الجامع الناصري والقبب الناصرية، ومن هذا المرسوم تتلخص ضرورة اختيار الشخص المناسب الى هذه الوظيفة فلابد من أن يكون عالماً موثوق الاخلاق وهذه الاخلاق توافرت في القزويني قدوة العلماء العاملين، فلذلك رسم بالامر الشريف العالمي المولوي السلطاني المالي الناصري، ان يفوض اليه نظر الجامع الناصري واوقافه والنظر إلى التربة والمدرسة والاشرفيين واوقافها.

ولعل من مسؤوليات الناظر هي الإشراف على المؤسسة التعليمية بكل أساسياتها من عمارتها واوقافها والاعتناء والمحافظة عليها والنشاط القائم بها[٧]، كذلك اختيار المدرس الكفوء، ودليل ذلك أنه لما اختير الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الرحمن العسجدي (ت ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م)

---

(١) المدرسة الدماغية، تقع داخل باب الفرج أنشأها ارس الدين بن الدماغ العادلي سنة ٦٣٨ هـ /١٢٤٠م، خصصت للشافعية والحنفية، وأوقفت عليها الاوقاف الجليلة.ينظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١٧٧.

(٢) المقريزي، درر العقود الفريدة، ج١، ص٢٦٦.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٥، ص٤٣٧.

(٤) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٠٧.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦٩.

(٦) صبح الأعشى، ج١، ص١٠٤١.

(٧) المصدر نفسه، ج١١، ص٢٥٩.

مدرساً للحديث في المدرسة المنصورية، اعترض عليه قسم من طلبة العلم قائلين **((وليّت علينا من لا يصلح ونحن لا نريد الا من ننتفع بعلمه))**[١].

كذلك من الوظائف المتعلقة بالمدارس وظيفة البواب، التي مهمته تنظيم الداخلين الى المدرسة والخارجين منها، فيمنع دخول من ليس له ارتباط بها[٢]، ومن الأمثلة على ذلك بواب خانقاه ركن الدين بيبرس، الذي قيل عنه **((ولا يمكن بوابها غير اهلها من العبور اليها، والصلاة فيها لما لها في النفوس من المهابة ، ويمنع الناس من دخولها حتى الفقهاء والاجناد))**[٣].

ووجدت في المدارس وظيفة نقيب الطلبة، ومهمته مراقبة احوال طلبة العلم والاهتمام بشؤونهم وحددت وظيفته بأن يرتب الحاضرين ومن يدخل عليهم على قدر منازلهم، ويوقظ النائم، ويشير الى من ترك ما ينبغي فعله ويأمر بسماع الدروس والانصات اليها[٤].

ووجد في ذلك العصر وظيفة تشبه وظيفة الموظف ، وسمي صاحبها بكاتب الغيبة، واقتصرت مهمته، التأكد من سماعهم للدرس، وضبط اسماء الحضور وتسجيل أَسماء الطلاب الغائبين عن دروسهم والسؤال عن اسباب هذا الغياب[٥].

كما حددت مواعيد الدراسة ونظام العطل واختلف في ذلك بين المرحلتين الابتدائية والعليا، وقد حرص الواقفون على تحديد مواعيد الدراسة في المرحلة الابتدائية بدقة، إذ توجب على المؤدب ان يمكث لتعليم الاطفال من اول النهار الى وقت العصر سوى يوم الثلاثاء والخميس يمكث فيها الى وقت الظهر[٦].

ووجدت خدمات جليلة في المساكن الدراسية تدل على الرقي، فقد ذكر عن المدرسة الصاحبية البهائية[٧] انها كانت من أجلّ المدارس الدنيا، وأعظم مدرسة بمصر، يتنافس الناس من طلبة العلم في النزول بها، ويتشاحنون للسكن في بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة ، إذ كان للناس في سكانها رغبة عظيمة يتنافسون فيها تنافساً يرتفعنو فيه الى احكام[٨].

---

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١،ص ٣١٩-٣٢٠.

(٢) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص١١٠؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص١٠٤٤-١٤٥.

(٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤١٧.

(٤) المقريزي، السلوك، ج١، ص١٠٤٦.

(٥) السبكي، معيد النعم، ص٨٦-٨٨.

(٦) محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص٢٧١، ٢٧٢.

(٧) المدرسة الصاحبية البهائية ، تقع بزقاق القناديل قرب جامع عمرو بن العاص ، أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين وزير الظاهر بيبرس سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م .ينظر: المقريزي،المواعظ والاعتبار، ج٤،ص ٢١١ .

(٨) المقريزي ، المواعظ والاعتبار، ج ٤، ص ٢١١ . ٢١٢.

وجعلت المساكن الدراسية في المدرسة الناصرية وقفاً للمدرسين والمعيدين والفقهاء والقومة ، والفقهاء المتفقهين والمشتغلين بها ولطلاب المذاهب الأربعة، وللمؤدبين والإمام والبواب[1].

(١) المقزيزي، السلوك، ج١، ص١٠٤٥.

المبحث الثاني

الوظائـــف الديوانيـــة

جاءت هذه الوظائف لتسيير مرافق الدولة ومتابعتها وتطوير الادارة فيها، وتنوعت تلك الوظائف وتعددت بالنسبة للعماء الذين تقلدوها وكان لهم مكانة فيها، ومما يحسب للجهاز الاداري المملوكي أنه كان قابلاً للتطور والتوسع حسب حاجات المجتمع، وهذا واضح من خلال الوظائف المتعددة التي لم تكن موجودة في سابقتها من الدول، وهذه خصلة ايجابية لتلك الدول التي لبت جميع متطلبات العصر والانفتاح على نظام المؤسسات سواء الادارية او السياسية[١].

أولاً. الوزارة:

في اللغة مأخوذة من الوزر، والوزر هو المجلأ، وأصل الوزر هو الجبل المنيع، وكل ما التجأت اليه وتحصنت به فهو وزر، والوزير أيضاً هو الحمل الثقيل الذنب لثقله وجمعها أوزار، وكذلك اشتمال الشهداء لأنه عز وجل يمحصهم من الذنوب، والهاء في أوزارها للحرب وأتت بعض أوزار أهلها[٢]. وهو ما تجسد في قوله تعالى **(وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ _ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)** [٣].

فالوزير كلمة عربية تداولها المسلمون منذ صدر الاسلام ، وعبر عنها كما في قوله تعالى **(وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي _ هَارُونَ أَخِي _ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي _ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي)**[٤].

والوزارة في الاصطلاح هي أم الخطط السلطانية والرتب المملوكية لأن اسمها يدل على مطلق الاعانة، فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة وهي المعاونة أو من الوزر وهو الثقل، كأنه يحمل مع مفاعلة أوزاره واثقاله وهو راجع الى المعاونة المطلقة[٥].

فكانت الوزارة ارفع وظائف أرباب الاقلام، والمعروف أن هذه الوظيفة لم تكن مستحدثة بل عرفها المسلمون منذ عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإن لم يكن صاحبها يحمل اسم وزير، ووضعوا شروطاً لابد من توافرها في شخص الوزير وأهمها الإنصاف بالدين والعدل والعقل والبعد عن الهوى والانصاف[٦].

---

(١) علاوي، الحياة المعيشية والاقتصادية، ص١٦٢.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٢٨٢.

(٣) سورة الانشراح، الآيتان (٢-٣).

(٤) سورة طه، الآيات (٢٩-٣٢).

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص٤١٩.

(٦) النابلسي، عثمان بن ابراهيم (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) ، لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية،ط١،دار الفكر العربي، (بيروت: ١٩٨٩م) ، ص٣٠.

وقد ورث سلاطين المماليك جلّ أمورهم المالية والادارية عن سابقاتها من الدول ، ففي عصر الايوبيين كان يتم اجتياز الوزير من أمهر حملة الاقلام، وكان هناك تدريجاً وظيفياً حتى يصل الوزير الى منصب فيعمل في الوظائف الديوانية الصغرى مثل الكتابة ثم المباشرة، ثم يصل الى وظيفة شاد الدواوين وهي تعد من الوظائف الكبرى ومن هؤلاء الموظفين يتم اختيار الوزير[١].

وفي مستهل دولة المماليك اتخذ سلاطينها نهجاً بأن يسندوا وظيفة الوزارة للعلماء من أهل البلاد من أجل استقرار واستمرار الحياة الوظيفية ، واستمر الحال على ذلك حتى سلطنة المنصور قلاوون الذي كان يضطر الى تولية الأمير الشجاعي للوزارة اذا شغرت من قبل وزير آخر، الى أن وقع اختياره على احد العلماء لشغل الوظيفة[٢].

وعلى الرغم من ذلك فإن منصب الوزارة في العصر المملوكي لم يستقر في مكانته كبقية الوظائف ، ولم تكن وظيفة مهمة لدى السلاطين لأنهم أرادوا أن تكون السلطة المركزية بيدهم، وكان يتم اختيار الوزراء من العرب واحياناً من الامراء والمماليك إذ يعمد السلطان إلى أن يعين للوزراء رجل معمم أو صاحب سيف[٣].

وليس أدل على ذلك من هيئته اثناء الخدمة، فكان ناظره الخاص أول الموظفين دخولاً على السلطان، فيتحدث معه في كل ما يريد، ثم يدخل بعده ناظر الجيش، ثم يدخل كاتب السر، ثم يدخل الوزير بعد ذلك، ويذكر عن الوزير أمين الدين عبد الله بن تاج الرئاسة (٧٤١هـ / ١٣٤٠م) أنه عندما دخل على السلطان الناصر محمد كلفه بمساعدة ناظر الخاص وتلبية احتياجاته، وانه ليس له حديث مع السلطان إلا في الجبن ودار التفاح وصناعة التمر[٤] ، وهذه أمور لا تليق بمنصب الوزير ، فأصبح هؤلاء موظفون أعلى قدراً من الوزير[٥].

ومن العلماء الذين شغلوا هذه الوظيفة:

١- الوزير مؤيد الدين الشيباني (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م):

مؤيد الدين أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف بن عبد الواحد، الشيباني القدسي المصري المعروف بابن القفطي، تولى منصب الوزارة في مدينة حلب بعد أخيه[٦].

---

(١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج١، ص٩٦.

(٢) البيومي، النظم المالية، ص٤٠، عنان، محمد عبدالله, مصر الاسلامية،ط١،دار الكتب المصرية، (القاهرة : ١٩٣١م), ص١٥٥.

(٣) ابن اياس، بدائع، ج١، ص٥٧٨.

(٤) اليوسفي، نزهة الناظر، ص١١٧.

(٥) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج٧، ص٨٤.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٦.

٢- فخر الدين الشيباني الاسعردي (ت ٦٩٣هـ / ١٢٩٣ م) :

فخر الدين ابراهيم بن لقمان بن احمد بن محمد، الوزير الكاتب الشيباني الاسعردي، ولد سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م، شيخ جليل وكان يحدث عن ابن رواح، وكان له تلاميذ يأخذون عنه فكتب عنه البرزالي وغيره من طلبة العلم ، تدرج في الوظائف فأول ما عمل في ديوان الانشاء لحسن خطه وبراعته[١]، ثم تولى وزارة الصحبة للسلطان الملك السعيد ، ثم تولاها مرتين للملك المنصور قلاوون، وصف بأنه كان فيه احسان للرعية[٢].

٣. محمد بن محمد بن علي المصري (ت ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م) :

تاج الدين محمد بن محمد بن علي بن محمد بن سليم بن حنا المصري ، ولد في شعبان سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢ م ، سمع من سبط السلفي ومن المرسي وابن عبد الدائم وابن ابي اليسر، أسندت اليه وظيفة الوزارة في عصر السلطان الناصر قلاوون في صفر سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م، حتى قيل أنه انتهت اليه رئاسة مصر في عصره ، ومن مآثره الجميلة أنه بنى مكتباً بالقرافة، وهو الذي اشترى الآثار النبوية بمبلغ ستين الف درهم وبنى له المكان المنسوب إِليهِ ووقف عليها البستان المعروف بالمعشوق[٣].

٤- محمد بن محمد بن عبد العزيز (ت ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م):

سعد الدين محمد بن محمد بن عبد العزيز بن عطايا ، ترقى في الوظائف الديوانية فعمل بالكتابة الى أن ولي نظر البيوت، حتى استقر في وظيفة الوزارة في سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م ، للسلطان الناصر قلاوون ، وكان خيراً ديناً محباً للخير وأهله[٤].

٥-محمد بن فضل الله الهمذاني (ت ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥م):

رشيد الدين محمد بن فضل الله بن أبي الحسين بن غالي خواجا غياث الدين خواجا الوزير ابن الوزير (مشيد الدولة الهمذاني)، اشتغل بالعلم وصحب أهل الخير، فلما توفي الوزير علي شاه ، تم استدعاؤه من قبل السلطان الناصر قلاوون, وفوض اليه الوزارة فتمكن من الامور ، وفوض اليه مقاليد المماليك الى أن صار في مرتبة الوزير السلجوقي نظام الملك ، وكان جميل الصورة وافر العقل صائب الرأي حسن الاسلام، له آثار جميلة، منها تطبيق الشرع على أهل الذمة والصلح بين المغول وأهل الاسلام ورد المواريث الى مذهب ابي حنيفة من توريث ذوي الأرحام، وكان اليه تولية النواب في الممالك وعزلهم، ولا يخالفه صاحب في ذلك[٥].

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٦، ص٦٤ .

(٢) ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة ، ج١، ص١٣٦.

(٣) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٥، ص ٤٦٨.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤ ، ص٢٤٣ ؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٥، ص ٣٩٥.

(٥) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص١٣٥.

ثانياً. وظيفة كاتب السر:

تختص هذه الوظيفة بقراءة الرسائل الواردة الى السلطان وكتابة اجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها، وتشفيرها، وكذلك الجلوس بدار العدل لقراءة القصص والتوقيع عليها مظهراً عن مشاركة الوزير في بعض الأمور[١].

وديوان كاتب السر أصبح يعرف عن المماليك احد أهم النظم الادارية التي اهتم بها سلاطين المماليك فكان رئيس الديوان يعين بمرسوم سلطاني ينتهي بحلف اليمين امام السلطان، ثم يقوم بتعيين معاونيه او مساعديه (نوابه) [٢]، وكان السلطان يمنحه لقب يتميز به عن غيره من اصحاب الدواوين مثل لقب مقر او رئيس[٣].

وكذلك يخلع عليه خلعة التنصيب، وهي جبه ثمينة مطرزة يصحبها فراء فاخرة[٤]، إذ قسمت اعمال هذا الديوان منذ استحداثه بالنسبة للفئات العاملة فيه على مجموعتين عاملتين الاولى خاصة بالكتاب والكتاب، والثانية ذات مهام ترتبط بالمساعدين من غير الكتاب فيما يرأس هاتين المجموعتين كاتب يعرف بأسم كاتب السر، او كاتم السر الذي يتولى الرد على الكتب التي ترد الى الديوان إذ يكتب اجوبتها بخطه او خط احد معاونيه من كاتب الدست او الدرج بعد أخذ علامة السلطان عليه[٥].

وقد وثق العمري[٦] كونه احد كتاب السر هذه المسؤولية بقوله **((وانني مهما اطلعت عليه من مصالح مولانا السلطان، اوصله اليه وأعرضه عليه ولا أعفيه شيئاً منه، لو كان عليّ، ولا أكتمه ولو خفت وصول ضرره اليّ)).**

وكان كاتب السر هو رئيس ديوان الانشاء، ذلك الديوان الذي كان يشرف على أَربعة أَمور رئيسة، وتعد هي من ارفع الولايات الديووانية في العصر المملوكي[٧].

---

(١) دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٢٧.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٣، ص٣١٠؛ عبد المنعم ماجد، نظم دول سلاطين المماليك، ص٥٥.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٥، ص٤٨٩؛ عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط١، مطبعة النهضة (القاهرة : ١٩٦٢م)، ص٣٠٧؛ باشا حسن، الألقاب، ص٤٩٠.

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٣، ص٥٩٩.

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١، ص١٣٧؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٢٦-٢٢٧ .

(٦) التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٥.

(٧) السحماوي ، شمس الدين محمد (ت ٨٦٨ هـ / ١٤٦٤م) ، صناعة الكاتب والكاتم المعروف باسم المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الانشا للخالدي، تحقيق:أشرف محمد أنس مطبعة دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة : ٢٠٠٩م)، ص١٢.

ومن هذه الأمور:

١. النظر في البريد

يعد كاتب السر هو المشرف على جهاز البريد الذي كان يربط مختلف اطراف الدولةالمملوكية بعضها ببعض[١]، وكان البريد على نوعين بري وقوامه الخيل، وله محطات متقاربة تزود البريديين وخيولهم بما يحتاجون اليه، وكانت مهمة هؤلاء البريديين توصيل التعليمات من السلطان الى النواب وحمل اخبار هؤلاء الى السلطان، اما البريد الجوي فعماده الحمام الزاجل الذي كان قلعة الجبل المركز الرئيسي لأبراجه وشيد لهذا الحمام ابراج على امتداد طرق البريد لتكون بمثابة محطات ويكون لهذه الأبراج موضعون مدربون[٢].

وكذلك كان لكاتب السر الإشراف على امر العيون والجواسيس التي كانت الدولة تبثهم بين اعداء الدولة لضمان وصول اخبارهم اليها باستمرار فتأمن بذلك شرهم وغاراتهم، وكذلك كان هؤلاء العيون يبثون حول نواب السلطنة في سائر الولايات بمصر والشام لقمع أَي تمرد او عصيان من جانبهم في مهده[٣].

٢. كان كاتب السر هو المشرف على المكاتبات الرسمية التي ترد الى السلطان من مختلف الدول واعداد الردود عليها فضلاً عن اعداد الرسائل التي يبعث بها السلطان الى مختلف رؤساء الدول[٤].

٣. كان كاتب السر هو المشرف على التوقيعات[٥] (مراسيم التعيين) الخاصة بكافة الولايات[٦]، ولم تكن هذه المهمة بالسهولة التي قد يتصورها البعض في عصر مثل عصر المماليك الذي عرف برعاية قواعد وللتمسك بهذه القواعد فكل مقام مقال ولكل موظف او امير وحاكم تقليد خاص حسب درجته ورتبته[٧].

---

(١) السحماوي، صناعة الكاتب، ص١٠١.

(٢) عاشور، مصر في عهد المماليك البحرية، ص١٤٩.

(٣) السحماوي ، صناعة الكاتب ، ص١٠٢ .

(٤) العمري، المساك والممالك، ص٦؛ القلقشندي، صبح الاعشى، ج١، ص١٤٦؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٧٣١.

(٥) التوقيع ، هو قرار تعيين يصدر من السلطان هو بمصطلح العصر نسخة امر او تشريف خليفي او ملكي او اميري برسم تعيين موظف او ترتيب مستخدم في احدى وظائف الدول الهامة كالقضاء والحسبة ونحو ذلك . ينظر:رمضان احمد، الايجازات والتوقيعات، مطبعة هيئة الاثار المصرية (القاهرة: ١٩٨٥م), ص٩.

(٦) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١، ص١٤٧.

(٧) عاشور، مصر في عصر دولة المماليك، ص١٤٦.

٤. كان كاتب السر مسؤولاً عن قراءة القصص والتوقيع عليها والمقصود بالقصص المظالم التي ترفع من المتظلمين من اطراف البلاد ونواحيها للسلطان لكشف تلك المظالم عنهم، وذلك عن جلوسه للنظر فيها بدار العدل(١).

وفيما عرف في العصر المملوكي بمجالس النظر في المظالم وكان مجلس النظر في المظالم في العصر المملوكي يتشكل برئاسة السلطان ويحضره كبار رجال الدولة، فقد كان يحضره قاضي القضاة الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي وقضاة العسكر الثلاث (الشافعي، الحنفي، المالكي) ومفتو دار العدل الاربعة (الشافعي، الحنفي، المالكي، الحنبلي) وكاتب السر ووكيل بيت المال والمحتسب فضلاً عن اكابر امراء الدولة وكان هذين المجلسين يعقدان يومين في الاسبوع هما الاثنين والخميس ثم اصبح في عهد الشراكة يوم السبت والثلاثاء ثم اضيف اليهما الجمعة(٢).

وكان يسبق ذلك ان تعرض هذه القصص (المظالم) على كاتب السر فيقرأها ويفحصها ويقدر اهميتها ثم يقوم بالتوقيع عليها اذا وجدها تستحق العرض على السلطان، وعندما يتم عقد مجلس النظر في المظالم يقوم كاتب السر أَو من ينوب عنه بقراءة تلك القصص، ثم كتابة الحكم الصادر عليها من السلطان(٣).

ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة:

١- القاضي عبد الوهاب بن فضل الله العمري (ت ٧١٧ هـ / ١٣١١م):

شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله القرشي العمري ، تولى وظيفة كتابة السر في سلطنة الاشرف خليل ،الذي منعه من القيام لأي أحد مهما كانت رتبته لفضله، كذلك تولى الوظيفة في عهد السلطان الناصر قلاوون ، وقيل في فضله **((كاتباً اديباً مترسلاً كتب المنوب الفائق ومتع بحراسة لم يفقد منها شيئاً ولم تتغير كتابته))**(٤). كذلك نعته الصفدي(٥) قائلاً **((كَانَ كَامِلا فِي فنه مَا كتب عَن مُلُوك الأتراك أحد مثله وَلَا عرف مقاصدهم مثله وَكَانَ يَدُور فِي كَلَامه ويتحيل حَتَّى يخرج عَن ثقل الْإِعْرَاب وَمَا يلحن لِأَن ذَلِك خرج مُلُوك عصره))**.

٢- خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م):

صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك بن عبد الله بن عز الدين الالبكي الصفدي الشافعي الاديب البارع ، شارك في عدة فنون، فسمع الحديث وتفقه، فبرع في العربية والأدب، ونظم الكثير، وانشأ الكتب والرسائل، وألف كتباً كثيرة، وولي كتابة السر بحلب(٦).

---

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٦٦٠-٦٦٦؛ الحجم, رفيق، موسوعة مصطلحات علم التاريخ الحربي الاسلامي، ط١، مكتبة لبنان ناشرون (بيروت: ٢٠٠٠م)، ص٣٣٠.

(٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٦٦٦؛ ماجد، نظم دولة المماليك، ص١٠٦.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١، ص١٤٥؛ ج٦، ص١٩٣؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٦٦٧.

(٤) الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٤٢١.

(٥) الوافي بالوفيات، ج١٩ ، ص٢١١.

(٦) المقريزي ، درر العقود، ج٢، ص٧٧.

٣- محمد بن عبد القاهر المصري النشائي (ت ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م):

ناصر الدين محمد بن عبد القاهر بن أبي بكر بن عبد الله بن أحمد بن منصور بن أحمد المصري النشائي ، ولد سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٨ م ، ترقى في الوظائف في دولة المماليك من وظيفة لأخرى ، فكتب في الانشاء ثم ولي توقيع الدست[١]، وكاتب السر ، حتى عظم جاهه[٢].

٤- محمد بن علي بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣م):

بدر الدين محمد بن علي بن يحيى بن فضل الله بن مجلي بن دعجان بن خلف بن نصر القرشي العدوي العمري ، لقب بكاتب السر بن كاتب السر بن كاتب السر ، تولى وظيفة كاتب السر عوضاً عن أبيه سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧م في سلطنة الاشرف شعبان لمدة عشرين سنة ، وصف بأنه كان أحد عظماء الدنيا ، وبرئاسته يضرب المثل ، واليه ينتمي الاكابر، وبه وبأسرته كانت تتجمل الدول[٣].

ثالثاً. وظيفة الدوادار:

تعد وظيفة الدوادار من الوظائف الساندة في الديوان ، ومهمة هذا الموظف في ديوان تنحصر في تبليغ الرسائل والقصص الديوانية الصادرة عن السلطان واليه بعد وضع العلامة السلطانية، وكان الدوادار لا يقوم بإصدار المراسيم الا بعد استشارة السلطان وأخذ الاذن منه بفحوى التحرير فقد ذكر العمري[٤] عن لسان أحدهم في عهد السلطان الناصر محمد قائلاً **((بأنني لا أؤدي عن مولانا السلطان رسالة في اطلاق مال، ولا استخدام مستخدم ولا اقطاع اقطاع، ولا ترتيب مرتب، ولا تجديد مستجد، ولا سداد شاغر، ولا فصل منازعة، ولا كتابة توقيع ولا مرسوم، ولا كتاب صغيراً كان أو كبيراً إلا بعد عرضه على مولانا السلطان فلان ومشاورته، ومعاودة أمره الشريف ومراجعته))**.

وإذ خرج عن دست السلطان أمراً بكتابة مرسوم يحمل الدوادار رسالته الى ديوان كاتب السر لتحريرها[٥]. ويقوم الدوادار بعمل الخازن فقد يخزن ويحفظ ويودع المكاتبات السلطانية بمختلف انواعها في أضابير خاصة، عادة تكون مقسمة على حسب نوع الكتاب الصادر من

---

(١) كاتب الدست، تختص هذه الوظيفة بإعادة قراءة الاوراق على السلطان بعد قراءة كاتب السوق، وسمي بذلك نسبة الى مرتبة السلطان التي يجلس عليها لانهم يجلسون عنده للكتابة .ينظر: القلقشندي، صبح الاعشى، ج١، ص١٥٠؛ دهمان، معجم الالفاظ التاريخية، ص١٢٧.

(٢) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٥، ص٢٧٠.

(٣) المقريزي، درر العقود الفريدة، ج٣، ص٦٦؛ ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج١، ص٤٨٣ .

(٤) التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٢١-١٢٢.

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٢٠-٢١.

الديوان او القادم اليه يعلق عليها بطاقة باسمه (اي اسم مضمون الكتاب) وتاريخه باليوم والشهر والسنة، ثم تجمع هذه البطاقات وتوضع في اضابير خاصة لذلك الشهر، حتى يسهل فيها بعد استخراج ما أريد منه ان يستخرج من الكتب والتواقيع، واذا ما انتهى العام ضمنت اوراق الشهود مجتمعة مع بعضها البعض ، والعادة أن تبدأ الكتابة فيه من أعلاه مع سياق اليوم وتترك ورقة بيضاء تفصل بين أوراق أشهر السنة تلك، وهذا الدوادار نفسه يقوم مقام الحاجب في الديوان(١).

وتعد هذه الوظيفة مهمة ومؤثرة في سير ديوان كاتب السر من الناحية الادارية، لأن الدوادار يحيط من خلال عمله هذا بكل ما كان يصدر عن الديوان وما يرد اليه من كتابات وهو نفسه يقوم بختمها بخاتم الدولة او السلطان الذي اختلف في مقدار حجم الورقة التي كتبت عليه، حسب اختلاف رتبة المرسل اليه، لذا فهو يشبه في عمله نوعاً ما عمل صاحب ديوان الخاتم أَيام الامويين والعباسيين وبعدهم الفاطميين(٢).

ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة:

١- بلبان بن عبد الله الرومي (ت ٦٨٠هـ/١٢٨٠م):

سيف الدين بلبان بن عبد الله الرومي الدوادار ، كان من أعيان الأمراء ونجبائهم، وكان السلطان الظاهر بيبرس يعتمد عليه ويحمل اسراره الى القصاد، وكان يباشر وظيفته بكل أمانة ولم يكن معه كاتب سر ، وبقي في الوظيفة حتى سلطنة المنصور قلاوون(٣).

٢- بهاء الدين الدوادار (ت ٧١٧ هـ / ١٣١٧م):

بهاء الدين أرسلان الدوادار، كان قد درس على يد القاضي علاء الدين بن عبد الظاهر، وكانت له صحبة مع السلطان الناصر قلاوون عندما كان في سلطنته الثانية وساعده في الخلاص من الامراء الطامعين في السلطة ، لذلك عندما رجع الناصر الى سدة الحكم مرة ثالثة حفظ له المعروف وولاه وظيفة الدوادار، وكان مهاباً من قبل الامراء والاكابر، وقد نفع الناس عند السلطان، حتى قيل في حقه **((وكان يكتب مليحاً ويعرف الدوادارية جيداً، وتواقيعه مسددة وعبارته وافية بالمقاصد، خبير بما يكتبه))**(٤).

٣- الناصري الدوادار (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م):

الجاي بن عبد الله الناصري الدوادار، الأمير سيف الدين كان من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم جعله استاذه دواداراً صغيراً مع ارسلان الدوادار، وكان الجاي يعظم وظيفته

(١) حسن، تاريخ المماليك، ص٣٢٠؛ ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك، ص٥٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٤، ص١٦٢.

(٣) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج٣، ص٤١٩.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٨، ص٢٢٥ .

وينجح بها، وكان مشهوراً بالخير والدين ، اشتهر في وظيفته بالنزاهة والامانة ، وكان متأدباً فاضلاً حسن الخط ، يحفظ كثير من المسائل ، وكانت له صحبة مع تاج الدين السبكي الذي أفاد منه بعض المسائل [١].

٤ . يوسف بن أسعد الدمشقي (ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤م):

صلاح الدين يوسف بن أسعد الدمشقي الدوادار، كان في بداية أمره يتعاطى الكتابة وله مشاركة في استحضار تواريخ الناس وتراجمهم ، ترقى في وظائف الدولة حتى أصبح دواداراً في سلطنة الناصر قلاوون ، واشتهر بحسن خطه وهمته في وظيفته[٢].

رابعاً. ناظر الخاص:

انشأ هذا الديوان السلطان الناصر قلاوون سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٧م) وهو ديوان يختص بشؤون السلطان المالية ، وعرف بديوان الخاص إذ يتولى الاشراف عليه موظف كبير يسمى الناظر الخاص ويساعده في ادارة شؤون هذا الديوان موظفون ممثلون لموظفي ديوان النظر، وأهمه مستوفي الخاص، ومن ضمن اختصاصاته الاشراف على الخزانة السلطانية ومقرها في القلعة ، كذلك يتولى ناظر الخاص الانفاق على شراء اللحوم والكساوي لموظفي القصر السلطاني وكبار رجال الدولة ونواب السلطنة في الشام والقضاة والامراء[٣].

ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة :

١. عبد الكريم بن هبة الله المصري (ت ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣م):

كريم الدين أبو الفضائل عبد الكريم بن هبة الله بن السديد المصري القاضي الشهير، تولى وظيفة ناظر الخاص للسلطان الناصر قلاوون التي نال شهرة فيها فكان مدبر الدولة وفاقت مكانته مكانة الوزراء من الوجاهة والحرمة ، حتى أن السلطان لا يقبل بكتاب الصرف إلّا بقلم القاضي كريم الدين ، وكان كريم النفس يساعد المحتاجين[٤].

٢. سليمان بن ابراهيم المصري (ت ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣م):

القاضي علم الدين سليمان بن ابراهيم بن سليمان المعروف بابن المستوفي المصري ، تولى وظيفة ناظر الخاص وكان بارعاً في صناعة الحساب وكتابة الخط الحسن ، وكانت له قدرة في النظم والارتجال [٥].

---

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٨٢؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج٣، ص٣٩.

(٢) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٦، ص٢٢١.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٣ ، ص٥٢٣.

(٤) الصفدي ، الوافي بالوفيات، ج١٩ ، ص٦٦.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ١٠٨.

٣ . جمال الكفاة (ت ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م):

جمال الدين ابراهيم القاضي المعروف بجمال الكفاة، تولى وظيفة ناظر الخاص للسلطان الناصر قلاوون، وكان مقتدراً في وظيفته حتى أصبح مشهوراً ومتنفذاً في دولة المماليك البحرية، وبقي في وظيفته حتى وفاته[١].

خامساً . ناظر بيت المال:

هي إحدى الوظائف الديوانية التي تختص بحمل حمول المملكة الى بيت المال والتصرف فيه ، سواء بقبض الاموال أو صرفها أو حتى تسويغها ، وهذه الوظيفة لا يتولاها إلَا أهل العدالة والديانة ، ويشترط فيه أن يكون عارفاً بصناعة الكتابة وتنظيم الحسابات، ولعل من مهامه اعداد قائمة تحتوي على أسماء أصحاب المرتبات في بيت المال ، وعليه ذكر الجهات التي يرد منها ايرادات بيت المال ، ومراقبة الوارد والمتصرف منها[٢] .

ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة:

١. محمد بن أحمد الدمشقي (ت ٦٧١هـ / ١٢٧٢م):

الشيخ تاج الدين أبو المظفر محمد بن أحمد بن حمزة بن علي بن هبة الله التغلبي الدمشقي ، كان من أعيان أهل دمشق ، تنقل في العديد من الوظائف حتى استقرَّ في النظر في بيت المال، وحسنت سيرته [٣].

٢. ابراهيم بن أحمد الدمشقي (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م):

كمال الدين أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن فارس الاسكندراني الدمشقي ، شيخ القراء ومسندهم حفظ القرآن الكريم منذ صغره واتقن القراءات العشر حتى أصبح مرجعاً لطلبة العلم ، أسندت اليه وظيف بيت المال واشتهرت سيرته في ذلك ، فكان أميناً حسن السيرة كثير الديانة والخير[٤].

٣. محمد بن الحسين الشافعي (ت ٦٨٠هـ / ١٢٨١م):

تقي الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن رزين بن موسى العامري الحموي الشافعي، قاضي القضاة وأشهر محدثي دمشق، تولى وكالة بيت المال في دمشق وكان مشكور السيرة فيها، فضلاً عن توليه العديد من الوظائف في مصر[٥].

---

(١) ابن تغري بردي، المنهل الوافي، ج١، ص١٩٥.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٣٢.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٠٨.

(٤) الذهبي، تاريخ الاسلام، ج ٥٠، ص٢١٢.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٣٤٩.

٤. جعفر بن محمد بن عبد الرحيم المصري (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م):

أبو الفضل صدر الدين جعفر بن محمد بن عبد الرحيم بن أحمد الحسيني المصري المعروف بابن عبد الرحيم ، كان إماماً عارفاً بالمذهب الشافعي ، رحل في طلب العلم وأخذ الفقه والحديث، تولى العديد من الوظائف لعل أهمها وكالة بيت المال في القاهرة ، فاشتهر فيها[١].

٥. أحمد بن محمد الشافعي (ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م):

كمال الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد البكري الشافعي ، رحل في طلب العلم وكان من المحدثين ، تولى العديد من الوظائف في دمشق والاسكندرية ، ومن أشهرها النظر في بيت المال في دمشق لمدة أثني عشر عاماً ، كان فيها مشكور السيرة مهاباً[٢].

٦. ابراهيم بن أحمد الحلبي (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م):

كمال الدين ابراهيم بن أحمد بن ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم بن محمد بن هبة الله الحلبي الحنفي ، سمع الحديث الشريف على علماء عصره ، تولى وظيفة بيت المال في حلب، وكان كاتباً مجيداً [٣].

سادساً . وظيفة ناظر الجيش:

يطلق على الموظف المختص نقيب الجيش الذي يعهد اليه حراسة السلطان في اثناء سفره أو في اثناء خروجه في المواكب، ويساعدوه موظفون كبار منهم صاحب ديوان الجيش وينوب عن الناظر في تصريف شؤون الديوان ، ويختص كذلك بالأمور المالية في الجيش المملوكي ومصادر الانفاق فيه[٤] .

ومن العلماء الذين تولوا هذه الوظيفة:

١. محمد بن كمال الدين الشيباني (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م):

محمد بن كمال الدين أحمد بن أبي الفتح بن أبي الوحش أسد بن سلامة بن سليمان بن فتيان الشيباني المعروف بابن العطار، له اهتمامات في الحديث الشريف ، وتنقل في الوظائف الديوانية حتى عهد اليه وظيفة ناظر الجيش في الشام ، وكان ذو سيرة حسنة ورئاسة وتواضع[٥].

---

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ج ٨، ص ١٣٨.

(٢) الصفدي، أعيان العصر، ج١، ص ٣١٨.

(٣) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج١، ص٧٧ .

(٤) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص٢٩٨؛ ابن شاهين، زبدة الفكرة، ص١٨٦.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص١٢٢.

٢. ابراهيم بن قروينة (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م):

مكين الدين ابراهيم بن قروينة القاضي الكبير، كانت له حظوة عند الامراء فتقلد العديد من المناصب منها ناظر الجيش، إذْ ولاه السلطان الناصر بنفسه، ويعد من رؤساء الكتب كثير الخير[١] .

٣. محمد بن يوسف الحلبي (ت ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م):

محب الدين محمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي ، رحل الى القاهرة لينهل من علومها حتى أتقنها، وكان مشهوراً في الحساب، حتى أسندت له وظيفة ناظر الجيش سنة ٧٥٩هـ / ١٣٥٧م، وقد عظم قدره وارتفعت مكانته عند الامراء والسلاطين، فقد كان مقدماً عند السلطان الاشرف شعبان ، ووصف بأن كان عالي الهمة نافذ الكلمة كثير البذل والجود[٢].

٤ . محمود بن محمد العجمي (ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م):

جمال الدين محمود بن محمد بن داود القسري الحنفي المعروف بالعجمي ، من الوافدين الى القاهرة التي نهل منها العلوم حتى اصبح قاضياً، وكانت له صحبة مع الامراء فتولى من خلالها عدد من الوظائف حتى ترقى الى وظيفة ناظر الجيش، وكان رئيساً كاملاً وفاضلاً وجامعاً[٣].

(١) الصفدي، أعيان النصر، ج ١، ص ١١٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج١، ص١٤٨.

(٣) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٦، ص٩٥.

الفصل الثالث

مزاولة العلماء للنشاط المهني والحرفي

المبحث الاول

طبيعة العمل المهني والحرفي

أولاً . نظرة على أهمية العمل في الاسلام:

يكتسب العمل أهمية كبيرة في الاسلام وفق مبدأ السعي في الارض وعدم الاتكال، فجاءت الآيات القرآنية دالة على ضرورة العمل بصيغ وعبارات معينة وفق ما أراده الله للإنسان، من ذلك قوله تعالى **(وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)**[١]. ومعنى ذلك أن الله تعالى جعل وقت النهار مشرقاً مضيئاً، من أجل أن يتمكن الناس من الذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك[٢]. وقوله تعالى **(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)**[٣]. أي أن الرزق قد حرم في هذه المدة الزمانية والمكانية فعندما يفرغ المصلون من صلاة الجمعة أذن الله لهم بالانتشار في الارض والابتغاء من فضل الله تعالى[٤]. وقوله تعالى **(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)**[٥] . أي أن الله تعالى قد امتن على عباه أن سخر لهم الارض وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً ، وأباح لهم منافعها وسخر لهم السحاب لاستخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معايش أي مكاسب وأسبابا يكسبون بها ويتاجرون فيها ، ويتسببون أنواع الاسباب[٦].

كما دلَّتْ السنة النبوية على أهمية العمل وحثت الاحاديث النبوية الشريفة على سعي المسلم للعمل وأن يجعل نفسه بلا عمل أو كسب ، فعن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال **((مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ**

---

(١) سورة النبأ، الآية (١١).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت : ١٤١٩م)، ج٨، ص٣٠٧.

(٣) سورة الجمعة، الآية (١٠).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٨، ص١٤٨.

(٥) سورة الاعراف، الآية (١٠).

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٥١ .

دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)) [١]. وهناك حديث نبوي شريف يوضح ويؤكد على عمل المسلم والكف عن السؤال حفظاً لكرامته، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **((لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا، فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ))**[٢]. وعن المقدام بن معد يكرب الزبيدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال **((مَا كَسَبَ الرَّجُلُ كَسْبًا أَطْيَبَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَمَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَخَادِمِهِ، فَهُوَ صَدَقَةٌ))**[٣]. بل أن الانبياء عليهم السلام كانت لهم مهن وحرف ، فآدم (عليه السلام) كان حراثاً وحائكاً، وإدريس (عليه السلام) كان خياطاً ، ونوح (عليه السلام) كان نجاراً، وهود وصالح (عليما السلام) كانا تاجرين، وأيوب (عليه السلام) كان زراعاً، وسليمان (عليه السلام) كان خواصاً[٤].

وللفقهاء والمؤرخين المسلمين تعاريفاتهم في العمل وهي دالة على ذلك ، فذكر الشيباني[٥] العمل بأنه **((الاكتساب لطلب المعاش و طلب الحلال وتحصيل المال بما يحل من الاسباب))**. كذلك ذكر الحبيشي[٦] أن العمل هو **((الغنى عن الناس وهو أكبر سعادة وأحسن إفادة))**. وعرفه ابن خلدون بأنه **((الكسب هو قيمة الاعمال البشرية))**[٧].

---

(١) البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م) ، الجامع المسند الصحيح ، تحقيق: مصطفى ديب، دار ابن كثير (بيروت: ١٩٨٧م)، ج٣، ص٥٧.

(٢) البخاري، الجامع المسند الصحيح ، ج٣، ص٥٧.

(٣) ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ / ٨٨٦ م) ، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر (بيروت: د . ت)، ج٢ ، ص٧٢٣.

(٤) الحبيشي، جمال الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م) ،البركة في فضل السعي والحركة وما ينجي بأذن الله تعالى من الهلكة،ط١، عناية اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، (بيروت: ٢٠١٦م)، ص٤٣ .

(٥) محمد بن الحسن(ت ١٨٩هـ / ٨٠٤ م) ، الاكتساب في الرزق المستطاب، تحقيق محمود عرنوس (دمشق: (دمشق: ١٩٣٨م)، ص٣٢.

(٦) البركة في فضل السعي والحركة، ص٦٨.

(٧) المقدمة, ص٣٤٣.

ثانياً . التنظيم المهني والحرفي في دولة المماليك البحرية:

عُرِّف النظام المهني والحرفي بعدة مسميات ، من ذلك الاصناف الذي يعني النوع والضرب من الشيء وتمييز الاشياء عن بعضها وجعلها أصنافاً، وهي تعني أيضاً الطائفة من كل شيء[١]. وقد جاءت هذه اللفظة مرادفة لكلمة المهنة التي استخدمها كثيراً البلدانيين[٢].

لذلك تعد الأصناف الإسلامية التي كانت وليدة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والفكرية قد استخدمت كلمة صنف منذ البداية للتعبير عن الجماعات الحرفية والمهنية في المجتمع العربي الإسلامي، وقد أطلق هذا التعبير على التنظيمات المهنية والحرفية في العصور الإسلامية الوسيطة[٣]. وكان الغرض من وراء تكتل أصحاب كلّ حرفة أو مهنة في نقابة أو تنظيم هو أنّ هذه الجماعات كانت ترنو الى الاجتماع في مكان واحد لما بينهما من روابط مهنية ومصالح مشتركة من أجل حماية أنفسهم، وتنظيم شؤون مهنتهم والشعور بروح الجماعة[٤] .

وفيما يتعلق بالمهنة والحرفة فهما كذلك مصطلحان للاحتراف في العمل ، فالمهنة لغةً: هي العمل، ومهن الرجل، عمل في صنعته وحذق وتمرس فيها ، وهي الخدمة والابتذال[٥].
ويمكن القول أن المهنة تتشابه مع الحرفة في مقصودها فهي الدراية بالعمل والحذق بالخدمة ، وكل عمل في الضيعة يعد مهنة [٦].

أما الحرفة في اللغة: فهي اسم من الاحتراف ، وهو الاكتساب يقال هو يحرف لعياله ويحترف ويقرش ويقترش ويجرح ويجترح بمعنى يكتسب من أماكن معينة[٧]، وقيل الحرفة هي الصناعة، والمحترف هو الصانع، وفلان حريفي، اي معاملي[٨]، وحرفة الرجل صنعته، وحرفته لأهله واحترف بمعنى كسب أيا كان[٩].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص١٩٩.

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٤١٠ .

(٣) الشيخلي، صباح ابراهيم ، الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها (بغداد: ١٩٧٦م) ص٦٨.

(٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٣٠٦.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٣٢٥.

(٦) المصدر نفسه، ج١٣، ص٤٢٥.

(٧) الهروي، محمد بن أحمد بن الازهري (ت ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م) ، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب ، ط١، ار احياء التراث العربي، (بيروت : ٢٠٠١م) ، ج٥، ص١٣.

(٨) الجواهري، أبو نصر اسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م) ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق احمد عبد الغفور،ط٤، دار العلم للملايين، (بيروت: ١٩٨٧م)، ج٤، ص٣٤٣.

(٩) ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٤٤.

وأما الحرفة في الاصطلاح فهي الطعمة والصناعة التي يرتزق منها، وهي جهة الكسب، وكل ما اشتغل الانسان به، فأنه عند العرب يسمى صنعة وحرفة[١].

وقد روي عن علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) قال: **((اني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول هل له حرفة فإن قالوا لا ، سقط من عيني))**[٢].

وبعد أن استعرضنا مجموعة التعاريف الخاصة بالتنظيمات المهنية والحرفية بشكلها العام، ننتقل الى البيئة المصرية والشامية التي احتضنت هذه الاعمال المهنية والحرفية ، وكيف كانت ملاذاً آمناً لهم ، إذ تعد مصر وبلاد الشام من البلاد التي اشتهرت بالحرفيين والصنّاع ، إذ تعد فئة الحرفيين من الفئات الكبيرة في مصر وبلاد الشام التي ارتبطت بحياة الناس اليومية من خلال توفيرهم لجميع الحاجات الضرورية لأفراد المجتمع والتي تبين مدى المهارة والاتقان التي وصل اليها الحرفيون في مهنهم المختلفة مما جعل مصر وبلاد الشام مقصداً للتجار، ولهذا نجد ان الحرفيين والصناع شكلوا شريحة اجتماعية كبيرة في مصر ودمشق ، اذ اقاموا في مناطق وحارات خاصة بهم وكانت كل حارة تسمى باسم مهنة سكانها او الصنعة التي اشتهرت بها[٣].

وعمد بعض أصحاب الحرف والمهن على أَنْ تكون متاجرهم قريبة من المتنزهات حيث الاماكن التي يكثر الناس من زيارتها ، وذلك من اجل تسويق صناعتهم[٤].

---

(١) الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الفتاح الحلو (الكويت: ١٩٨٤م)، ج٢٣، ص١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ج٢٣، ص١٣٣.

(٣) العادل ، فؤاد : المجتمع الشامي، وزارة الثقافة والارشاد القومي (دمشق: د. ت) ، ص١٦.

(٤) ابو البقاء، عبد الله بن محمد البدري (ت ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م) ، نزهة الأنام في محاسن أهل الشام، ط١، دار الرائد العربي (بيروت: ١٤٠٠م)، ص٧٨.

المبحث الثاني

مهـــن العلمـــاء وحرفهـــم

يبدو أن العلماء لم يكونوا على مستوى واحد من حيث المكانة ودرجة العلو في العلم، فضلاً عن قوة التأثير في المجتمع ، وهذا يعطي مؤشراً أن العلماء الذين اختاروا الاندماج في المجتمع من خلال الاعمال المهنية والحرفية لم تسعفهم المكانة أو الحظوة لدى الدولة لأن يكونوا ضمن الجهاز الاداري، أو حتى أنهم فضلوا الابتعاد عن الاحتكاك بالدولة بعيداً عن الشبهات كي يبقى سجلهم ناصع البياض مع قساوة المعيشة، لذلك نجد أن هناك عدداً ليس بالقليل قد امتهن الاعمال والحرف سبيلاً للعيش أياً كانت طبيعة العمل ومدى تناسبها ومكانتهم الاجتماعية(١).

أولاً. التجـــارة:

لعبت التجارة دوراً كبيراً في الحياة المعيشية، فقد كانت رافداً مهماً من روافد الاقتصاد المملوكي، ومن هنا جاء اهتمام المماليك بهذا الرافد ، فقد عملوا على حمايته وتطويره حتى صاروا وسطاء التجارة في ذلك الوقت، إلا أن ازدهار التجارة لم يكن بسبب اهتمام سلاطين المماليك فحسب، بل ساعد على ذلك وجود الازدهار الاقتصادي الذي عم بلاد الشام ومصر في جميع الجوانب، إذ كانت بلاد الشام ومصر من أفضل المناطق الزراعية، حتى ان منتجاتها الزراعية كانت تفيض عن حاجة السكان وتصدر كميات منها الى الخارج(٢).

وازدهرت التجارة في معظم المدن الشامية والمصرية فكانت تصدر إلى مختلف الدول الأوروبية كصناعة الصابون والنسيج(٣) ، كما صدرت السكر والبلسم الى اسواق قبرص وفلورنسا(٤).

وقد تحدث المقريزي(٥) بشكل موجز مقسماً التجار الى قسمين أقسام رئيسة هم : اهل اليسار، والباعة وهم متوسطو الحال (ويسميهم اصحاب المعايش).

---

(١) علاوي، الحياة المعيشية، ص١٥٥.

(٢) علي، محمد كرد، خطط الشام، ط٢ (بيروت: ١٣٨٩م)، ج٤، ص٢٤٦.

(٣) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٦٠.

(٤) غوانمة، يوسف درويش, التاريخ الحضاري , دار الفكر للنشر والتوزيع (عمان: ١٩٨٢م)، ص٦٥-٦٦.

(٥) اغاثة الامة بكشف الغمة، ص٧٢-٧٣.

وبسبب اتساع تجارتهم وانتشارهم بين ارجاء الدولة فقد استخدموا خيول البريد في تنقلهم[١].

وقد بذل سلاطين المماليك جهوداً كبيرة في الاهتمام بتجار الكارم إذ عينت موضعاً على خدمتهم سمي "مستوفي البهار والكارم" او "نظر البهار والكارم"[٢].

كذلك شجع سلاطين المماليك التجار الاجانب ، ولم يكتفوا بذلك بل تعدى الى حماية الطرق التجارية، وشمل الاهتمام بتأمين طرق التجارة البرية والبحرية ووضعوا القوانين لحقوق الملاحة وفتحوا بذلك امام بلادهم آفاقاً جديدة للتجارة عبر البحار والمحيطات المعروفة لديهم آنذاك، وأخذوا ينشرون الأمن والاطمئنان وقاموا بتعمير الموانئ وأمنوا طرق المواصلات لتأمين مرور السفن التي تحمل البضائع[٣].

ومن ضمن اهتماماتهم حماية الطرق العربية بالبحرية، إذ قاموا بإنشاء محاكم التجارة في مصر والشام، وهي على نوعين الاولى محكمة التجار وتعرف بمحكمة الصدق أَو السوق والثانية محكمة الملاحة أو محكمة السلسلة[٤].

المحكمة الاولى فان اختصاصها هو النظر فيما يحدث من قضايا بين التجار وتتكون من ستة اعضاء اربعة منهم من مصر والشام اما اثنان اجانب، اما المحكمة الثانية فكان اختصاصها الحكم في قضايا التجار وما يتعلق بالملاحة ومتنوعاتها[٥].

وإمعاناً من الدول في توطيد الأمن والحفاظ على سلامة التجار والمسافرين فقد اقطعت زعماء القبائل البدوية الكثير من الاقطاعات، مقابل حراستهم للطرق، فقد عهد الظاهر بيبرس درك

(١) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥١٦.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٣٣.

(٣) النقاش، زكي، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، منشورات الكتاب اللبناني للطباعة والنشر (بيروت: ١٩٤٦م)، ص٩٨؛ اليوزبكي، توفيق سلطان، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي (الموصل: ١٩٧٥م)، ص٦٠.

(٤) السلسلة (الآصرة) ، هذه السلسلة كانت يعترض بها على النهر بحيث تمنع السفن من المضي حتى تأخذ منها المكس، وكان مكانها يسمى السلسلة،ينظر: اليوزبكي، تاريخ تجارة مصر، ص٦٧.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٣٤.

البلاد وحراسة طرقها الى بني عقبة عرب الكرك وبني مهدي عرب البلقاء[١].

وعملت دولة المماليك البحرية على توفير الخدمات الضرورية للتجار وقوافلهم اثناء سفرهم فقامت ببناء الخانات والفنادق والجسور واهتمت بتعبيد الطرق وتنظيمها فيما بين اطراف الدول، واوكلت الى صاحب البريد مسؤولية سلامتهم[٢]، حتى ان المرأة كانت تسافر من دمشق الى القاهرة دون حاجة لحمل طعام او شراب[٣].

أَمّا الاسواق فقد قاموا بتنظيمها وتنسيقها، فكانت متوازية ومسقوفة بحيث توفر الراحة للبائع والمشتري، وتحمي المواطنين من حرارة الشمس صيفاً والمطر شتاءً، وكانت هذه الاسواق متخصصة، وخصص كل سوق لسلعة معينة وجرت العادة ان تقفل الابواب بقفل ليلاً[٤].

ومن العلماء الذين مارسوا مهنة التجارة:

١. الاديب شهاب الدين العزازي (ت ٧١٠هـ / ١٣١٠م):

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم بن عبد العزيز بن جامع بن راضي بن جامع، الأديب الشاعر ، كان من التجار المعروفين في قيسارية جهاركس بالقاهرة[٥].

٢. أحمد بن محمد الزرعي (ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م):

شهاب الدين أحمد بن محمد بن قطينة الزرعي ، التاجر المشهور بكثرة الاموال والمتاجر والبضائع ، قدرت زكاته في إحدى السنوات بخمسة وعشرين ألف دينار ، دفن بتربته في دمشق التي تسمى المرفع[٦] .

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ص٤٩٢؛ غوانمه، يوسف درويش، تاريخ شرق الاردن في عصر دولة المماليك الاولى، (القسم الحضاري)،وزارة الثقافة والشباب (عمان، ١٩٧٩م)، ص٩٤.

(٢) غوانمه، التاريخ الحضاري، ص٦٩.

(٣) غوانمه، تاريخ نيابة بيت المقدس تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي, دار الحياة(عمان: ١٩٨٢م)، ص٨٩.

(٤) المرجع نفسه, ص٨٢.

(٥) المنهل الصافي والمستوفي، ج١، ص٣٦٢.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٨، ص٢٣٠ .

٣. عبد الرحيم بن أبي القاسم الرحبي (ت ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م):

نجم الدين التاجر عبد الرحيم بن أبي القاسم عبد الرحمن الرحبي ، كان من خيار التجار في دمشق وصف بالعدالة والرضى عند الحكام ، بنى في الرحبة تربته المشهورة وعليها مسجدا وأوقف الاوقاف الجليلة ، وكان صاحب معروف وصدقة [١].

٤.علي بن أحمد بن محمد بن العرضي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) :

علاء الدين علي بن أحمد بن محمد بن صالح بن ندي العرضي التاجر الدمشقي ، سمع الكثير على الفخر ابن البخاري وزينب بنت مكي وابن الكمال وابن مؤمن ، وحدث بالكثير بدمشق ومصر والاسكندرية ، اخذ عنه تقي الدين ابن رافع وتقي الدين ابن عوام [٢].

٥. محمد بن مسلم بن حسين البالسي (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م):

ناصر الدين محمد بن مسلم بن حسين بن مسلم ، كان ابوه جمالاً ثم ضرب في الارض يبتغي من فضل الله بالمتجر، ونشأ محمد بمصر على صيانة ورُزق حظاً في التجارة حتى نما ماله، حتى أصبح كبير التجار في مصر، وكان يرسل عبيده للتجارة فكان احدهم يسافر إلى الهند وآخر الى بلاد الحبشة وآخر الى بلاد التكرور فما منهم إلّا من يعود وقد ربحت تجارته ربحاً زائداً، فعظمت امواله حتى خرجت عن حد يقدر على ضبطه وصار يضرب به المثل، وانشأ خارج مدينة مصر مدرسة فمات قبل اكمالها وعين لها مالاً ووقف عليها عقاراً وجعل بها درسين للفقهاء المالكية والشافعية، وكمُلت بعد موته، فكان له صدقات جليلة استقى منها جماعة، وكان مقتصداً في ملبسه ومأكله ومركوبه[٣].

٦. يوسف بن أحمد بن ذبيان (ت ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م):

جمال الدين يوسف بن أحمد بن ذبيان بن أبي الحسن البعلي المعروف بابن طسان، كان أحد التجار المياسير، وكانت له فضائل واحسان على الفقراء ، وكان لا يتشدد في قضاء ديونه[٤].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية, ج١٨، ص ٣٧٨ .

(٢) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٣.

(٣) المقريزي، درر العقود الفريدة، ج٣، ص ٢٢٩؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ج١، ص٩٩.

(٤) ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر، ج١، ص٢٨٧.

ثانياً. النجـــارة:

عرفت هذه الصناعة قديماً في بلاد الشام وازدادت اهميتها لحاجة الناس لها ولزيادة متطلباتهم لاسيما ان بلاد الشام ومصر كان يتوفر فيها الأخشاب مثل خشب الجوز والصنوبر والسنديان والبلوط وغيرها(١).

وقد برع النجارون في استعمال مهاراتهم واساليبهم الفنية في إعداد مصنوعاتهم واتقانها والبراعة في تجميلها وتزيينها ، وابرز ما اشتهرت به مصر ودمشق في مجال النجارة هي صناعة الابواب والكراسي والسقوف الخشبية للبيوت(٢)، وصناعة الصناديق الخشبية التي تعمل من خشب الجوز بمتانتها وجمال نقوشها المحفورة، وايضاً صناعة السفن وآلات الحصاد(٣).

ومن أشهر العلماء الذين برعوا العلماء في هذه الحرفة:

١- محمد بن محمد بن عمر بن خواجا (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م):

إمام الدين بن شرف الدين محمد بن محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن الحسن بن عبد الله بن خواجا الكاتب ، كان حسن السيرة تتلمذ على العلماء ، وكان مشكوراً معروفا بالكفاءة، امتهن مهنة النجارة حتى برع فيها ، وكانت تدر عليه أَموالاً كثيرة ، وقيل أن ذهبه كان ورقاً (٤).

٢ . محمد بن علي المؤذن (ت ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م):

أبو خرشة محمد بن علي بن المؤذن ، كان من العلماء المعروفين بتفسيرهم للرؤويا ، وكان يعمل في النجارة تعلمها عن أستاذه(٥) .

ثالثاً. التكسب بالشهادة:

هم مجموعة من الكتاب العارفين بشؤون العقود والكتابة، كانت مهمتهم التأكد من صحة العقود والتوقيع عليها، منعاً من حدوث مشكلات بسببها في المستقبل، وكان هؤلاء ينتقون من اهل العلم والصلاح والعدل وتشبه مهمتهم (الكتاب العدول) في الوقت الحاضر(٦).

---

(١) علي، محمد كرد، خطط الشام، ط٢، مكتبة النوري (دمشق: ١٩٨٢م)، ج٤، ص٢٠٧.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص٧٣٠-٧٣١.

(٣) علي، خطط الشام، ص٢٠٧-٢١٥.

(٤) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٥، ص ٤٧٢.

(٥) المصدر نفسه، ج٥, ص٣٥٨.

(٦) البصروي، علاء الدين علي بن يوسف (ت ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م) ، صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك، تحقيق: اكرم حسن العلي، دار المأمون للتراث (دمشق: د.ت)، ص٥٧.

وكان الشهود يحضرون الى الدكان او محل مخصص لكتابة العقود التجارية في السوق وفي حال ابرام عقد يشهدون عليه, ويكتب الكاتب العقد بين البائع والمشتري وللكاتب اجر معلوم وللشهود ايضاً نسبة متفق عليها من قيمة الصفقة التي تمت بين الطرفين[١].

ويروى عن الشهود انهم كانوا يجلسون في باب جيرون[٢]، في دكاكين في الدكان الواحد ما بين الخمسة والستة من الشهود[٣]، وللشاهد أجر على شهادته فقيل الأجر المدفوع دينار، وقيل درهمان[٤].

ومن العلماء من زاول مهنة الشهادة:

١- محمد بن عبد الرزاق الرسعني (ت ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م):

شمس الدين محمد بن عبد الرزاق بن رزق الله الرسعني الحنبلي ، نزيل دمشق، روى عن ابي روزبه وابن بهروز، وكان من كبار الشهود، له شعر جيد، ذهب إلى مصر في شهادة ولما رجع غرق بنهر الاردن [٥].

٢- محمد بن علي البالسي الدمشقي (ت ٧١١هـ / ١٣١١م):

عماد الدين أبو المعالي محمد بن علي بن محمد بن علي البالسي الدمشقي ، سمع من اسحاق الشاغوري وكريمة وجماعة حضوراً، ومن السخاوي وابن قميره وابن شقيرا، وعمر بن

(١) الونشريسي، أحمد بن يحيى (ت ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م) ، المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق،تحقيق: لطيفة الحسني، المغرب، وزارة الثقافة والشؤون الاسلامية(المغرب: ١٩٩٧م)، ص٢٥٨.

(٢) باب جيرون، هو الباب الشرقي للمسجد الاموي وهو من اكبر ابواب الجامع وله دهليز كبير.ينظر: المنجد، صلاح الدين، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحاليين المسلمين، ط١، دار الكتاب الجديد(بيروت: ١٩٦٧م)، ص٢٥٨.

(٣) العلبي، اكرم حسن، مدينة دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، الشركة المتحدة (دمشق: ١٩٨١م)، ص١٦٨.

(٤) الونشريسي، المنهج الفائق، ص٢٩١.

(٥) الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد سعيد بسيوني ، دار الكتب العلمية(بيروت: د.ت)، ج٣، ص٣٧١.

البرادعي، كان يعمل في الشهادات وكان محموداً في الشهادات عدلاً مرتضى ومحموداً في الشهادات، حسن الديانة[١].

رابعاً . النساخون والخطاطون:

اشتهر عدد من العلماء في مصر وبلاد الشام الذين امتهنوا حرفة النسخ والخط ليتمكنوا منها، فكانت مصدر رزقهم [٢]، ومن العلماء الذين زاولوا هذه المهنة:

١- احمد بن الدايم نعمة الحنبلي (ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م):

الذي عرف عنه انه كان يكتب بخط مليح بسرعة لا توصف مقارنة بمن كان يعمل في هذه المهنة في وقته حتى قيل: إنه كان في حالة تفرغه يكتب في اليوم كراريس او اكثر ويكتب الكراسين والثلاثة مع اشتغاله في يوم وليلة ، وبقي ملازماً للنسخ خمسين سنة[٣].

٢- يوسف بن محمد بن عثمان السرخسي (ت ٧٢١هـ / ١٣٢١م):

شرف الدين يوسف بن محمد بن عثمان بن يوسف بن ابراهيم السرخسي الدمشقي ، برز في علم الحديث وسمع صحيح مسلم والموطأ للإمام مالك ، كان ينادي على الكتب بدمشق ونسخ الكثير من الكتب ، وينسخ الدواوين اللطاف ، ويبدو انه كان دلالاً للكتب وفي نفس الوقت ناسخاً يجمع ما بين المهنتين[٤].

٣- عمر بن محمد بن عثمان الدمشقي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م):

جمال الدين عمر بن محمد بن عثمان الدمشقي ، كان رئيساً في النسخ حتى تخرج على يده جماعة في الكتابة ، وكتب بخطه كثير من المجلدات ، وحصل بذلك مالاً جماً حتى قيل عن نفسه **((حصل لي من التكتيب خمسة الاف دينار))**[٥].

(١) الذهبي، العبر في خبر من غبر ، ج٤، ص٢٩.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٧، ص٣٤.

(٣) الذهبي، تاريخ الاسلام، ج١٤، ص٣١٩ .

(٤) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٦، ص٢٤٤.

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٢١.

خامساً. الحياكة والنسيج :

حرفتان متكاملتان لا تستغني الواحدة عن الأخرى من حيث تكاملها فيما بينها اي لا يمكن ممارسة مهنة الحياكة دون ان تتوفر المنسوجات التي بواسطتها يتم للحائكين ممارسة عملهم[١]، وأكد على ذلك ابن خلدون[٢] بقوله **((هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران، يحتاج اليه البشر من الرفه ... وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل)).**

وقد عرفت مهنة الحياكة والنسيج منذ العصور القديمة للإسلام وتقدَّمتْ في هذه الصناعة بعد ذلك صناعة النسيج مدناً عديدة على رأسها مدينة دمشق[٣].

ومن العلماء الذين زاولوا هذه المهنة:

١- محمد بن احمد بن تمام (ت ٧٤١هـ / ١٣٤٠م):

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن تمام التلي الصالحي ، كان من الامرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، وكان خياطاً يتكسب من عمل يده[٤].

٢- أحمد بن موسى الزرعي (ت ٧٦١ هـ / ١٣٥٩م):

أبو العباس أحمد بن موسى الزرعي ، الفقيه الصالح الزاهد ، كان مقيما بزرع من أعمال دمشق، امتهن حرفة صناعة العبي بيده من الصوف فكان اذا باع العباءة أخذ ثمنها فإن زادت عن قيمتها يترك الزيادة ويأخذ ما بقي[٥].

(١) متعب الغثامي، اضواء على الحرف والصناعات، ص٣٨٥.

(٢) المقدمة، ص٢٧٠.

(٣) زيود، محمد احمد: حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني وحتى نهاية العصر الفاطمي، دار الفكر (دمشق : د. ت)، ص١٩٣.

(٤) الذهبي، ذيول العبر، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية (بيروت: د. ت)، ص١٢١-١٢٢.

(٥) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص ٣٨٤؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص٢٣٢.

٣- احمد بن عبد الله بن احمد بن معجم (ت ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م):

كان يتكسب من حانوت يبيع فيه القز[١] بالصالحية[٢].

سادساً. الصياغة:

هي مصدر صاغ يصوغه صوغاً ، والشيء مصوغ وهو صائغ الحلي [٣].

فلقد اهتم الانسان منذ أقدم العصور بالزينة وهذا الاهتمام دفعه الى التفنن في صياغة وصناعة الادوات الثمينة ، لذلك ابدع الحرفيون في فن صياغة الذهب والفضة وتفننوا في تصويرها[٤].

ومن العلماء الذين عملوا في هذه المهنة:

١- احمد بن عثمان الذهبي (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م):

شهاب الدين أحمد بن عثمان بن قايماز بن أبي محمد عبد الله الدمشقي الذهبي ، قرأ في صغره وسمع صحيح البخاري ، وأجاز له علماء عصره ، اشتهر في صناعة الذهب المدقوق حتى برع فيه ، حتى قيل عنه الذهبي نسبة الى مهنته التي عمل فيها[٥].

٢- ابو عبد الله محمد بن يوسف (ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٦م):

وهو من الذين امتهنوا مهنة الصياغة حتى عرف بلقب كبير الذهبيين في زمانه[٦].

سابعاً. الحدادة:

تعد مهنة الحدادة من اهم المهن القديمة المعروفة في مصر وبلاد الشام ومما ساعد في تقدم هذه الصناعة وتطورها هو توفر معدن الحديد في مصر وبلاد الشام فقام الحدادون بصناعة الكثير من الادوات الحديدية[٧].

---

(١) القز، اسم عام يطلق على اليرقة المنتجة للحرير واهتم اهل الشام بتربيتها وتفقيسها وعلقها وقطف الشرانق. ينظر:الانطاكي، داود عمر (ت ١٠٠٨هـ / ١٥٩٩م) ، تذكرة اولى الالباب والجامع للعجب والعجاب، مؤسسة عز الدين(بيروت : ١٩٩٠م)، ج١، ص٢٥.

(٢) المقريزي، درر العقود الفردية، ج١، ص١٩٣؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٩٨ .

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص٤٤٢.

(٤) محمود، حرف وصناعات بلاد الشام، ص٨٨.

(٥) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص٣٨٦.

(٦) السخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص٣١٤.

(٧) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٤٩.

ومن العلماء الذين زاولوا هذه المهنة:

١- محمد بن ابي بكر بن ابي القاسم الدمشقي (ت ٧٢١هـ / ١٣٢١م):

طلب العلم منذ صغره وأخذ الحديث عن جماعة من العلماء ، امتهن حرفة الحدادة، حتى اشتهر بها، وتكسب من هذه المهنة وعمل في صناعة السكاكين[١].

ثامناً. الدلالة:

امتهن بعض من العلماء مهنة الدلالة، فكان الدلال يعمل ويتجول في الاماكن التجارية التي توجد فيها الاسواق، وكان الباعة يعرضون بضاعتهم على الارض في الاسواق، وكان الدلال او المنادي يقوم بالدعاية لمحاسن هذه البضاعة واثمانها على مسامع الناس، ويعد هذا نوع من أَنواع الجذب للمشتري[٢].

ومن العلماء الذين مارسوا هذه المهنة:

١. أحمد بن حذيفة الدمشقي (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م):

أبو العباس أحمد بن حذيفة شرف الدين الدمشقي الدلال ، كان عالماً في الحديث ، وامتهن مهنة الدلالة في العقار[٣] .

٢. صالح بن عبد العظيم العسقلاني (ت ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م):

تقي الدين صالح بن عبد العظيم بن يونس بن عبد القوي بن ياسين بن سوار العسقلاني، سمع الحديث وغيره من علماء عصره أمثال النجيب الحراني وتقي الدين بن رزين، امتهن حرفة الدلالة في سوق الكتبيين[٤] .

---

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ، ج ٥، ص ١٤٨.

(٢) زعرور، ابراهيم، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الايوبي والمملوكي، (دمشق: ١٩٩٢م)، ص١٤٢.

(٣) الذهبي، تاريخ الاسلام ، ج ١٥، ص٤٤٣.

(٤) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٥٦.

٣. يونس بن محمد الحراني (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م):

أبو النون يونس بن محمد بن يونس بن القصار الحراني القاهري ، أصله من حران واستوطن في القاهرة ، كان من علماء الحديث فقد سمع الحديث الشريف وحدث به ، امتهن حرفة الدلالة في قيسارية جهاركس بالقاهرة[١] .

تاسعاً. العطـــــارة:

امتهن هذه المهنة بعض العلماء الذين برعوا في صناعة العطور وذلك لكثرة الرياحين والورود والازهار، وقد وصف شيخ الربوة[٢] طرق تقطيرها في قرية المزه[٣]، بقوله **((ان العطر وغيره كان يستخرج في المزه من ضواحي دمشق من زهورها وورودها حتى ان حرافته تلقى على الطرقات وفي دروبها وأزقتها كالمزابل، فلا يكون لرائحته نظير ويكون ألذ من المسك الى مدة انقضا الورود))**[٤].

وكان يخصص للعطارين بدمشق سوق بالقرب من الجامع الأموي عُرِّفَ بسوق العطارين[٥].

ومن العلماء الذين امتهنوا هذه المهنة:

١- بدر الدين الشباني الصالحي العطار (٦٨٥هـ / ١٢٨٦م):

أحمد بن شيبان بن تغلب بن حيدرة ، الشيخ المسند المعمر، كان يسمع المسانيد في الحديث فسمع من حنبل جميع المسند ومن ابن طبرزد واكثر من الكندي ، واجاز له ابو جعفر

(١) ابن رافع، الوفيات، ج١، ص٢٦٦.

(٢) محمد بن ابي طالب (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار العروبة (بيروت: ٢٠٠٣م)، ص١٩٤.

(٣) المزه، قرية كبيرة غناء تقع وسط بساتين دمشق ، بينها وبين دمشق نصف فرسخ من دمشق.ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٢٢ .

(٤) الربوه، محمد بن ابي طالب (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بيروت (دار العربة، ٢٠٠٣م)، ص١٩٤.

(٥) ابن المبرد، رسائل دمشقية، ص٨١.

الصيدلاني، وابو الفخر اسعد سعيد، وزاهر بن ابي طاهر ، ومع ذلك كان عطارا عمل في مهنة العطارة[١].

٢- أحمد بن محمد بن علي السكندري (ت ٧٦٠ هـ /١٣٥٨م):

الشهاب المحلي أحمد بن محمد بن علي بن هارون بن علي الشهاب المحلي السكندري، قضي الشافعية في وقته ، كان يمتهن حرفة العطارة فكان يسافر لبيعها حتى أصبح مشهورا وأصبح غنيا[٢].

عاشراً. الزراعة:

النشاط الزراعي هو احد المقومات الأساسية لمسيرة الحياة والمجتمع، لذلك ارتبط النشاط الزراعي في مصر وبلاد الشام بسقوط الامطار وكانت جودتها وكميتها تعتمد بالدرجة الاولى على مياه الامطار, وقد ادى اختلاف مواقع البلدان وطبيعة التضاريس الى اختلاف واضح في نماذج المناخ، وتعدد المناخ في مساحات قليلة العرض من العوامل التي ادت الى تنوع المحاصيل الزراعية[٣].

ومن العلماء الذين عملوا في مهنة الزراعة:

١- احمد بن الحسن الكواشي (ت ٦٨٠هـ / ١٢٨١ م):

موفق الدين أحمد بن الحسن بن يوسف الكواشي، العلامة الزاهد صاحب التفاسير والتصانيف العديدة ، كان يعمل في بساتين له ثم يحصدها وقت الحصاد ويأخذ منه ما يحتاج له ولأسرته ويعطي الفقراء والمحتاجين الماكثين حوله، فكان يفعل هذا كل سنة حتى كثر زرعه وزاد محصوله الزراعي، فكان لا يقبل هدية من احد[٤].

(١) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج١، ص٣١٢.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص١٥٢.

(٣) زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية، ص٨٦.

(٤) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج١، ص٢٧٨.

٢- الحسن الكردي (ت ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م):

من المشايخ الصالحين ، كان يقيم بالشاغور[١]، في بستان له يأكل منه ويزرع فيه أنواع المحاصيل الزراعية ويطعم من يمر عليه او يزوره[٢].

حادي عشر. مهنة الصناعة:

شهدت مصر وبلاد الشام تطوراً ملحوظاً في العصر المملوكي، ومما ساعد على هذا التطور هو وجود الأيدي العاملة الماهرة على انتاج السلع الصناعية، وتوفير المواد الأولية بكميات كبيرة، فضلاً عن الرعاية التامة والتشجيع المستمر من قبل السلاطين المماليك، وهو الذي ساعد في ازدهار الصناعة ، ومن الصناعات المهمة:

أولاً – صناعة الاغذية:

تعد صناعة الغذاء وما يتصل بها من حرف من أكثر الحرف ارتباطاً وثيقاً بحياة المجتمع اليومية واكثرها تعبيراً عن المجتمع ومدى ثرائه او فقره، ففي مصر وبلاد الشام في حقبة عصر المماليك كان هنالك العديد من الحرف التي لها علاقة بالغذاء, وتنوعت بين الجزارة (القصابة) والطبخ وصناعة الحلوى والطحانين والفرانين والخبازين والشوائين، والكبوديين (الجزارين)، والبواردیين (وهم تجار التوابل)[٣] ، والرواسيين والطباخين والشراحيين، وقلائي الزلابية (الحلوانيين)، والشرابين (اللبانين)[٤].

وفي ضوء استعراض مسميات الحرف المتنوعة يمكن الوصول إلى انواع متعددة من الاغذية، التي كانت منتشرة في جميع انحاء البلاد، وقد خصصت هذه الاسواق لبيع المواد الغذائية[٥]، واتسعت هذه الاسواق التي شهدت اقبالاً من لدى الناس عليها واستمر العمل بها،

---

(١) الشاغور، محلة تقع خارج الباب الصغير من قبلي دمشق ظاهر المدينة . ينظر:البغدادي ، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) ، مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع، ط١،دار الجيل،(بيروت: ١٩٩١م)، ج٢، ص٧٧٤ .

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٧٤٠.

(٣) أبو يعلى، احمد بن علي بن المثنى ابو يعلى الموصلي التميمي (ت ٣٠٧هـ / ٩١٩م) ،هند ابي ليلى، حققه وخرج احاديثه حسين سليم اسعد، ط١، دار المأمون للتراث (دمشق : ١٩٨٧م)، ج٧، ص٣٢٩.

(٤) ابن الاخوة، معالم القربة في احكام الحسبة، ص٤٧– ٤٨.

(٥) قاسم، اسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، مكتبة سعيد رأفت (القاهرة : ١٩٧٨م)، ص٩–١٠.

وهذه الحرف المتصلة بالغذاء تكشف عن العادات الاجتماعية في مصر وبلاد الشام إذ كانوا معتادين على الاكل في البيوت[١].

ثانياً- حوانيت المطبخ:

هي الأماكن التي يشتري منها العامة طعامهم وكان رواد هذا المكان من الفقراء، اذ تقدم في هذه الاماكن المعدة للطعام الوجبات المطهية والساخنة وبأسعار زهيدة، كما ان هناك عدد كبير من باعة الطعام المتجولين يطوفون شوارع القاهرة وبلاد الشام[٢].

كذلك كان معهم موقد من النار مشتعل ليبقي الطعام ساخناً[٣]، اما البعض الآخر فكان يفترش الارض في الاسواق والشوارع، وفي رمضان كانت مطاعم القاهرة وبلاد الشام ومطابخها تستمر بمزاولة نشاطها طوال الليل حتى وقت السحور, الأمر الذي استرعى انتباه بعض الوافدين الذين لم يألفوا ذلك في مدنهم وبلدانهم[٤]، أَمّا الميسورون فكانوا يرسلون ما يريدون طهيه من طعام الى مطابخ قد خصصت لهذا الشأن[٥].

ومن أهم العلماء الذين زاولوا مهنة الطبخ:-

١- محمد بن عمر بن محمد الشيرازي (ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م):

شمس الدين بن الجد محمد بن عمر بن محمد الشيرازي ، سمع العلم على مجموعة من العلماء ، كان طباخاً بالخانقاه الصلاحية بالقاهرة[٦].

٢- بادار (ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م):

الشيخ العالم العابد شهاب الدين ابو العباس واسمه الأصلي احمد، لكن اشتهر باسم بادار، قدم الى الديار المصرية، وسكنها بعفة مما في ايدي الناس، حتى انه تردد اليه الناس

(١) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٩٤.

(٣) قاسم، عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، ط١، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية (القاهرة : ١٩٩٨م)، ص٣١٦.

(٤) ابن الحاج، ابو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن محمد الفاسي (ت ١٣٣٦م)، المدخل الى الشارع الشريف، المطبعة المصرية بالأزهر (القاهرة : ١٩٢٩م)، ج٢، ص٧٩-٨٠ .

(٥) ابن الحاج، المدخل، ج٣، ص١٨٦- ١٨٧؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩٤.

(٦) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٥، ص ٣٧٣.

للتبرك والزيارة، وكان ينسب الى معرفة علم الحرف, فكان من الطباخين المشهورين في بداية حياته[١].

ثالثاً. الخبـــــازون:

كان الخبز في عصر المماليك يباع جاهزاً في الاسواق والحوانيت، اذ كان يعد في البيوت، ثم يرسل الى افران الخبز لغرض خبزه، وكانت العادة ان صبيان هذه الافران يمرون في البيوت لأخذ العجين، ويبدو ان أهالي مصر وبلاد الشام كانوا يرسلون عبيدهم وخدمهم او حتى ابناءهم الى الأفران واحياناً لمراقبة الخبز، لأن الفران يحاول سرقة بعض من خبز الناس الرغيف والرغيفين، فكان البعض يبعثون العجين الى الفران لغرض خبزه مقابل أُجرة شهرية ، وكان البعض الآخر يدفعون الأجر عن كل مرة يخبز فيها عجينهم[٢].

على ان هذا الامر ليس مطلقاً, بل ان الميسورين هم فقط الذين يبعثون ليخبز لهم في الافران، اما عامة الناس فكانوا يشترون الخبز جاهزاً من الاسواق، وكانت هناك افران ضخمة تخدم الأحياء ذات الكثافة السكانية العامية[٣].

رابعاً. صناعة السكر:

تعد صناعة السكر إحدى الحرف المتصلة بالغذاء وكانت من الصناعات المهمة في عصر المماليك وذلك لارتباطها بالأعياد والمناسبات والتقاليد الاجتماعية[٤]، اما ما يخص ملكية هذه المطابخ، فان هناك مطابخ للسكر مملوكة لأفراد من عامة الناس من المصريين، كما كان هناك من اليهود المصريين من يملك مطابخ السكر في بعض الاحياء، وكان البعض منهم يعمل كأجير فيها، ولقد كان اصحاب هذه المطابخ يتولون ادارتها بأنفسهم وكان الامراء من بعض المماليك يملكون مطابخ للسكر ايضاً، وكانت تشكل مصدراً مهماً من مصادر دخلهم، وكان هنالك عدد من مطابخ السكر السلطانية يقدر عددها بسبع مطابخ, وقد خصص السلطان الناصر

(١) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج٣، ص٢٣٢.

(٢) ابن الحاج، المدخل، ج٤، ص١٧٠– ١٧٥؛ قاسم ، عصر سلاطين المماليك، ص٣١٨.

(٣) المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٠٦؛ قاسم ، عصر سلاطين المماليك، ص٣١٩.

(٤) قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص٣١٩.

بن محمد قلاوون ثلاث مطابخ لأبنائه وخصص واحداً للدولة وتشير المصادر الى ان هناك شخصاً مسؤولاً يتولى ادارة هذه المطابخ على العمال العاملين بها لكبر حجمها(١).

ومن الصناعات الخفيفة، هي صناعة الأثاث:

اولاً- صناعة السرائر:

وتسمى بالدكة وهي تشبه السرير ويصنع من الخشب ومطعم بالعاج والأبنوس أو من خشب مطلي بالدهون، وفوق الدكة ست من طاسات من نحاس اصفر مطلي بالفضة وهو من لوازم تجهيز العروس(٢).

ثانياً- صناعة الخزانات:

كانت هذه الخزانات تتخصص في توديع لوزام البيوت من التمور والأباريق وغيرها من ادوات المائدة، وهذه الخزانة جزء من اللوازم التي حرص المصريون على توافرها في بيوتهم، ويطلق على السوق الذي تباع فيه هذه المواد بسوق الخراطين، كما يباع في هذا السوق المهد الذي يوضع فيه الأطفال(٣)، وكانت هناك حارة خاصة بهم تسمى حارة الخرَّاطين(٤).

ثالثاً- صناعة (الحُصر):

هي التي تصنع من سعف النخيل او اوراق البردي او غيرها, ويتم استعمالها في المنازل والمساجد، كما كانت هناك انواع من الحُصر الرفيعة والقطان التي اشتهر اقليم الفيوم بصناعتها في عصر سلاطين المماليك، وكان غالبية صناع هذه المهنة من اليهود والنصارى، إذ شكى واحد من المعاصرين ان قسماً من هؤلاء الرهبان كانوا يضفرون الحُصر ويبيعونها ليقوموا بفرشها في المسجد(٥).

---

(١) ابن دقماق، ابراهيم بن محمد بان ايدمر العلائي (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) ، الانتصار لواسطة عقد الامصار، المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع والنشر (بيروت: د.ت)، ص٤١ .

(٢) المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٠١- ١٠٤.

(٣) ابن دقماق، الانتصار، ص٤٠؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٧٥.

(٤) الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت ١٢٤٠هـ / ١٨٢٤م) ، تاريخ عجائب الاثار في التراجم والاخبار، دار الوكيل (بيروت : د.ت)، ج٣، ص٢٨٢.

(٥) ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص٢٣٢- ٢٣٣.

صناعة الأقمشة والمنسوجات:

ازدهرت هذه الصناعة ازدهاراً كبيراً في ذلك العصر، مما يدل على حرص فئة مهمة من الناس على اناقتهم بشكل عام ولاسيما الفئات العليا، المرفهة اقتصادياً، وهذا الأمر يتناسب مع بناء المجتمع المصري والشامي ، فقد اهتم سلاطين المماليك اهتماماً كبيراً بمراسيم البلاط واعتنوا عناية كبيرة بزينة مواكبهم وفخامتها، فضلاً عن اناقة ملابسهم الثمينة وكسوة خيولهم(١)، وكان لكل فئة من المجتمع ملابس خاصة بها، لا يجب لغير هذه الفئة ان تتزيا بها، اما ما يخص ملابس العامة فكانت خالية من اي نقوش او زخرفة او زينة واقتصرت هذه الزخارف والنقوش على ملابس الحكام والقضاة والفقهاء من ارباب العمائم والتجار وامثالهم(٢).

ومن اهم الحرف المتصلة بصناعة الاقمشة والمنسوجات:

١- القـــزازون:

كان اصحاب هذه الحرفة ينقسمون الى قسمين: الأول يعملون بأجر عند اصحاب المصانع الصغيرة، اما القسم الثاني: فكان يعمل لحسابه وكان بدوره يقسم على فئتين، الاولى: تأخذ الغزل من الناس لكي تنسجه لهم لقاء اجر معلوم وعرف باسم (البقاله)، اما الفئة الاخرى فكانت تقوم بشراء الغزل ونسجه وبيعه ثوباً جاهزاً، واطلق على صاحب هذه الصنعة اسم (الحائك)(٣).

٢- الحريريـــون:

عُرِّف أَصحابُ هذه المهنة بـ(الحريريين) ومهمتهم تصنيع الحرير وصبغه، كما كان بعضهم يبيعه غزلاً لمن يروم تطريز ثوبه(٤)، والبعض الآخر يبيعه اثواباً، وكان بعض من اصحاب هذه الحرفة يعملون من حاشية تستعمل في صناعة الملابس، وآخرون من الحريريين يصنعون ثوباً رقيق الملمس من خلال مزج الحرير بالغزل وأثواب الطرح التي كانت تستعمل كغطاء للرأس او للكتفين(٥).

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٣٣.

(٢) ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص١٥.

(٣) قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص٣٢٣.

(٤) العمري، مسالك الابصار، ج١، ص١١٢.

(٥) ابن الاخوة، معالم القربة، ص٢١٨؛ ابن الحاج، المدخل، ج٤، ص١١.

٣- القصـــارون:

هي مرحلة تلي عملية نسج القماش تعرف باسم (القصارة) كان ممتهن هذه الحرفة يقوم بالنسيج الذي يتم عن طريق اغزال يدوية، وهي عملية تكميلية حتى تتداخل لحمة النسيج وسداه تداخلاً كاملاً، وكان هذا القماش يوضع بالماء بعد نسجه ثم ينشر كي يجف ويعاد رشه ونشره مرات عديدة حتى يصبح لونه ابيضاً، ومن الطريف ان اصحاب هذه المهنة كانوا يتصرفون بقماش الناس بشكل يدل على افتقار الأمانة، بمعنى ان احدهم يأخذ القماش الى بيته يستعمله وحينما يحاول صاحبه المطالبة، ولكن دون جدوى بحجة انه لم يكتمل قصارته[١].

٤- الصباغـــون:

من المهن المعروفة في ذلك العصر، إذ كان الناس يرسلون اقمشتهم الى الصباغ كي يقوم بصباغتها، ويمتلك الأخير الواناً عديدة يقوم بصبغ كل ثوب بحسب ما يطلب صاحبه من لون، ويظهر ان العرف السائد حينذاك يلزم الصباغ الذي يتلف الملابس بغرامة مالية اذا أَفسدَ أَي ثوب من ثياب الناس[٢].

ومن العلماء الذين زاولوا مختلف انواع الصناعات:

١- موسى بن محمد الحلبي (ت ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م):

شرف الدين أبو البركات موسى بن محمد بن محمد بن محمود بن سلمان بن فهد الحلبي، كان من العلماء المشهورين في حلب ، اشتهر بأنه كان من المحترفين في الصناعة[٣].

٢- محمد بن محمد بن الوادي (ت ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م):

محمد بن محمد بن علي بن حرز الله الوادي آشي ، قدم مدينة حلب وأخذ العلم من علماءها، فأصبح مشهوراً بعلمه ، فسمع منه الشيخ برهان الدين المحدث، وهو رجل فاضل سهل الجانب خفيف الروح كثير الدعابة، له حظ حسن واقتدر على النظم واحكامه لبعض الصناعات واشتهر بها[٤].

---

(١) ابن الاخوة، معالم القربة، ص٢٢١؛ ابن الحاج، المدخل، ج٤، ص١٦-١٧.

(٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٣١.

(٣) المقريزي، درر العقود الفريدة، ج٣، ص٤٩٩؛ ابن العماد ، شذرات الذهب، ج ٩، ص ٦٣.

(٤) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٥، ص٤٦٦.

٣- محمد بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩١ م):

الشيخ بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي الشافعي، من العلماء المشهورين في دمشق، سمع الحديث وبرع في الفقه والاصول والعربية، وكان مقتصدا في ملبسه، اجتمع الناس عليه لتقواه ، وكان يعمل منذ صغره في صناعة الزركش فعرف بالزركشي(١).

ثاني عشر. تجـــارة الكتـــب:

تعد تجارة الكتب من التجارات ذات النفع المشترك, اذ هي عملية نفعية تعود على الشخص بالعلم والربح معاً, لاسيما اذا كان الكتاب نفيساً, لذلك عكف العلماء على هذه التجارة في سبيل سد معيشتهم وتحسين احوالهم المعاشية, فضلاً عن كونها مهنة مطابقة وملازمة لمكانة العلماء العلمية, فهي من جهة تكتسب صفة علمية من خلال القراءة والتعلم, وتكتسب صفة الربح من خلال البيع.

ومن العلماء الذين امتهنوا هذه الوظيفة:

١- محمد بن اسماعيل بن ابي الحسن الانصاري الكتبي (ت ٧١١هـ / ١٣١١م):

شمس الدين محمد بن اسماعيل بن أبي الحسن الانصاري الكتبي المعروف بالشمس الحبار ، كان من تجار الكتب المعروفين في الشام، وكان حانوته مليئاً بالكتب التي يحسنها فضلاً عن ذلك كان يبيع الحبر ويتاجر بالكتب(٢).

٢- عبد المؤمن بن عبد الرحمن بن محمد الكاتب (ت ٧٤١هـ / ١٣٤٠ م):

عز الدين عبد المؤمن بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الحسن بن العجمي الكاتب ، من اهل حلب وكان محباً للعلم ويتعلمه، ثم سافر إلى القاهرة واحترف تجارة الكتب التي درت عليه اموالاً طائلة، وكان صاحب فضل وتودد(٣).

(١) المقريزي، درر العقود الفريدة، ج٣، ص١٥٠؛ ابن العماد ، شذرات الذهب، ج ٨، ص ٥٧٣.

(٢) البرزالي، المقتفي، ج٢، ق٢، ص٣٨.

(٣) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٢٥.

٣- عبد اللطيف بن عبد العزيز الحراني الشافعي (ت ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م):

شهاب الدين عبد اللطيف بن عبد العزيز بن يوسف بن أبي العز عزيز بن نعمة بن ذوالة الحراني الاصل الشافعي ، كان عالماً في النحو واللغة والمعاني والبيان والقراءات، ومع ذلك كان تاجراً في الكتب لاسيما كتب العربية، حتى ان كتبه وصلت إلى حلب والقاهرة(١).

وهذا يعني ان تجارة الكتب كانت لها اثراً في رواج الكتب ووصولها الى بلدان متعددة, الامر الذي ساهم في نشاط حركة المؤلفات.

ثالث عشر. مهنـــة نســـخ الكتـــب:

وهي من المهن المهمة على الصعيدين العلمي والاقتصادي، فمن الجانب العلمي وصول الكتب لمناطق متعددة من العالم الاسلامي وشهرتها، ومن الجانب الاقتصادي تحسين المعاش للعلماء الذين يمتهنون النسخ، فقد كان لهم حضور فاعل في مهنة النسخ التي عدت من أَشهر الاعمال الحرفيين وذلك لتماسها بالعلم والمؤلفات العلمية، فضلاً عن مزاولتها(٢) .

ومن العلماء الذين زاولوا هذه المهنة:

١- احمد بن ابراهيم الدمشقي (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م):

عماد الدين أحمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن الشيخ أبي اسحاق الواسطي الدمشقي ، من الفقهاء الشافعية، كان خطه حسن جداً فاستغله في مهنة النسخ، فكان ينسخ بالأجرة العديد من الكتب ، من ذلك مختصر دلائل النبوة للبيهقي(٣).

٢- أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م):

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الوهاب بن عبادة النويري الشافعي، كان فقيهاً ومؤرخاً بارعاً، ولم يكتف بذلك بل عمد إلى مهنة النساخة فكان يكتب الخط المنسوب فقد كتب صحيح البخاري ثمان مرات، يبيع كل نسخة منه بألف درهم، الأمر الذي جعله يكتب كل يوم ثلاث كراريس(٤).

---

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ، ج٣، ص٢٠٩.

(٢) علاوي، الحياة المعيشية ، ص١٥٧.

(٣) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص١٠٣.

(٤) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص٣٨١.

رابع عشر. مهنـــة الخياطــة:

تعد هذه المهنة قياساً بالمهن الاخرى اقل مكانة وحظوة، لكنها في نفس الوقت تحتاج الى خبرة ومهارة واتقان في العمل.

ومن العلماء الذين مارسوا مهنة الحرفية كالخياطة وغيرها:

١- عمر بن ابي بكر بن عبد الله الخوارزمي (ت ٧١٣هـ / ١٣١٣م):

زين الدين عمر بن أبي بكر بن بك بن عبد الله الخوارزمي التركماني الخياط ، كان خياطاً ماهراً في دمشق, حتى انه عرف بالمعلم(١).

٢- صالح بن مختار بن صالح المصري (ت ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧م):

تقي الدين أبو التقي صالح بن مختار بن صالح أبي الفوارس الاعزازي المصري ، قرأ على علماء عصره وأفاد منهم، كان موصوفاً بصلاحه وتقواه، واشتهر في علم الحديث الشريف ، مع ذلك كان خياطاً في القاهرة(٢).

خامس عشر. مهنة الطب:

تعد مهنة الطب من المهن الضرورية التي لا غنى عنها في أي مجتمع ، لأنها تتعلق بحياة الناس، وهي مهن جليلة شريفة تسعى للحفاظ على صحة الناس, وعلى الرغم من ان الطب يختص بفئة معينة درست العلم وتفننت به، إلّا أن ذلك لم يمنع عدد من العلماء في الإبداع فيه وتقديم المساعدة للمرضى فضلاً عن ما تدره عليهم من أرباح، ومن العلماء الذين امتهنوا هذه المهنة:

١- سنجر الطبيب (ت ٧١٥هـ / ١٣١٥م):

مجد الدين سنجر الطبيب ، كان طبيباً فاضلاً برع في مهنته حتى تقدم فيها نحو الشهرة فغنم منها أَموالاً جمة(٣).

(١) البرزالي، المقتفي على الروضتين، ج٢، ق٢، ص١٠٣.

(٢) ابن رافع، الوفيات، ج١، ص٢٠٤ ؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٦١.

(٣) البرزالي، المقتفي على الروضتين، ج٢، ق٢، ص١٩٩.

٢- أحمد بن يوسف الصفدي (ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م):

الشيخ شهاب الدين أحمد بن يوسف بن هلال بن أبي البركات الصفدي الطبيب ، قدم الى صفد ونشأ بها، ثم انتقل الى القاهرة وخدم في جملة أطباء السلطان الناصر قلاوون وبالبيمارستان المنصوري، وكان بارعاً في الطب[١].

٣- ابراهيم بن أحمد المغربي (ت ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م):

جمال الدين أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد المعروف بابن المغربي ، وكان معروفاً برئيس الأطباء، صاحب الرتبة المنيعة والمكانة العالية عند السلطان الناصر محمد ابن قلاوون وكان له الوجاهة في الدولة والحرمة الوافرة لقربه من السلطان وخدمته للأكابر[٢].

٤- علي بن عبد الواحد الرئيس (ت٧٩٦هـ /١٣٩٣م):

علاء الدين علي بن عبد الواحد بن محمد بن صغير، يعد رئيس الاطباء في الديار المصرية، كان ماهراً في تشخيص المرض واعطاء العلاج وشفي على يديه الكثير، وللفقراء نصيب من كرمه فكان يأخذ منهم فلساً على علاجه، فضلاً عن إقراضه للمال لمن يحتاجه[٣].

٥- ابن النفيس، الشيخ الامام صدر الدين التبريزي (ت ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م):

الحكيم، الطبيب رئيس الأطباء، كان إماماً في الطب، كثير الحفظ لمتونه، جيد التدبير، حاذقاً، ماهراً، مقرباً من الملوك والاكابر، رأساً في صناعته[٤].

(١) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج٢، ص٢٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٣٥.

(٣) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص٩٤.

(٤) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج٣، ص٢٤٤.

الفصل الرابع

المستوى المعاشي للعلماء

المبحث الاول

نظرة على طبيعة الحالة المعيشية في مصر وبلاد الشام

كان لقيام دولة المماليك البحرية في مصر وبلاد الشام أثرا ايجابيا على طبيعة الاحوال المعاشية على الرغم من أن هناك عوامل طبيعية وبشرية كان لها بالغ الأَثر في تردي الوضع المعاشي على الفرد في مناسبات عديدة, ولعل المحرك الاساسي لمستوى المعيشة في ذلك العصر هو الاسعار التي تأخذ أهمية في دراسة المستوى المعاشي للمجتمع ، سواء كانت الأسعار مرتبطة بالمواد ذات الارتباط الغذائي والاستهلاكي التي يحتاجها الإنسان في حياته اليومية ، أو حتى التي ترتبط بمجالات عمله ومردوده الاقتصادي المهني والحرفي ، وعادة ما تتعرض الأسعار إلى الارتفاع فتكون السلع التي يحتاجها الإنسان في غلاء شديد لذلك يعز عليه شراءها والحصول عليها فتؤثر في حياته بانتشار الأمراض والأوبئة وسبب ذلك إما الكوارث الطبيعية أو لظروف سياسية ، والعكس من ذلك عندما تستقر الظروف السياسية فيكون الإنتاج كبيراً والأسعار منخفضة كثيراً ، فيصبح بمقدور الفرد شراء السلعة التي يحتاجها فتكون حياته منعمة وآمنة.

وقبل أن نبدأ الحديث عن الاسعار والغلاء وأثرها في مستوى المعيشة جدير بنا أن نلقي الضوء على الطعام الذي كان متداولا في ذلك العصر وأثره على مستوى المعيشة ، فلقد كان غذاء الفقراء محط اهتمام السلاطين والامراء ، إذ كان يعيش بالقاهرة وحدها الكثير من الناس بدون مأوى، ويبدو ان عدداً قليلاً من الناس كانوا يمتلكون ثياباً غير تلك التي على اجسادهم، لكن الطعام كان الشاغل اليومي لكل واحد، وأي قصور مفاجئ يحول دون امكانية الحصول عليه او قصور في نوعيته كان مثار ذعر وجزع محلي، ولكن تتفق المصادر على ان العنصر الاساسي في غذاء العامة كان القمح وبينما كان هناك عدد من انواع الخبز المختلفة في مصر وبلاد الشام ، فالخبز في القاهرة كان ابيضا واعتبره الرحالة الغربيون من احسن النوعيات بالمقارنة مع الخبز الذي عرفوه في بلادهم، وفي بعض الاوقات لاسيما حينما كان سعر القمح يرتفع جداً، كان الشعير او غيره من الحبوب يخلط بالقمح مع الخبز، بينما كان شراء الخبز من

الحوانيت مشاعاً، يبدو ان معظم العائلات كانت تفضل شراء الحبوب لنفسها، وتطحنه وتخبزه في مطاحن وافران تختارها، وكان يتم شراء الحبوب زمن الحصاد وتخزن في جرار معرضه للشمس حتى لا تصاب بالسوس(القمل)، ولابد ان البيوت الفقيرة كانت اكثر اعتماداً على الخبز طالما ان الاطعمة الاخرى كانت غالية بالقدر الذي لا تستطيع شراها للاستهلاك المنتظم[١].

وفي بعض الحالات كان الناس يحتفظون بطواحين يدوية لطحن حبوبهم، اما عن الخبز نفسه، فكان يتم شراؤه يومياً مثل معظم مواد الطعام الاخرى، لأنه يصبح جافاً وغير مستساغ بعد ليلة ومن الواضح انه لم تكن هناك طريقة لحفظه[٢].

ويمكن للمرء أَنْ يرى السبب في ان هذه الطواحين والأفران ضرورية ، اذ كان البديل الوحيد هو صناعة الخبز يومياً في الفرن، واهمية الخبز في الغذاء كانت واضحة ومحل اعتراف منهم، اذ ان الخبز كان معروفاً بالعامية آنذاك باسم (العيش) اي الحياة[٣].

وعندما يتعلق الامر ببقية غذاء الناس نجد انفسنا في مواجهة قلة المعلومات إذ انه **((ومأكل اهل القاهرة الدميس والصير والصحناة والبطارخ ولا تصنع النيدة وهي حلاوة القمح الا بها وبغيرها من المدن المصرية))**[٤].

وقد لاحظ المقريزي[٥] الاختلافات الاقليمية في الغذاء على امتداد الاراضي المصرية، ففي الصعيد كانوا يأكلون تمر النخل والحلاوة المعمولة من قصب السكر، على حين يأكل اهل الوجه البحري القلقاس والجلبان، وكان اهل هذين الوجهين يحملون طعامهم الى الفسطاط حيث يباع هناك ويؤكل.

وكان كثيراً من المصريين يأكلون السمك طازجاً ومملحاً على السواء، ويأكلون منتجات الألبان بكميات كبيرة ، فضلا عن ذلك فكان الفلاحون يأكلون الكعك الذي يصفه المقريزي[٦] بأنه نوع من الخبز.

---

(١) صبرة ،آدم، الفقر والاحسان في مصر، ط١، ترجمة: قاسم عبده قاسم (القاهرة: ٢٠٠٣), ص١٨٦.
(٢) المرجع نفسه، ص١٨٧.
(٣) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص٢٩١.
(٤) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢١٥.
(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٣٦٧.
(٦) المصدر نفسه، ج١، ص٤٤.

ويبدو ان اللحم لم يكن من اغذية الفقراء، حتى ان الحرفيين والنجارين والحجارين وغيرهم من ذوي المهن كان بوسعهم اكل اللحم بانتظام، ولكن هذا الامر كان محالاً بالنسبة لبقية أصحاب المهن اليدويين، وتصبح استحالة شراء اللحم بصورة منتظمة واضحة تماماً اذا ما وضعنا في اعتبارنا ان رطل لحم الغنم كان يتراوح ثمنه ما بين درهم الى درهمين للرطل[١] في النصف الاول من القرن الثامن الهجري(١٤٠٠م) على حين كان الحارس أَو البواب في الحقبة نفسها في مدرسة خانقاه يأخذ ما بين عشرين الى ثلاثين درهماً راتباً في الشهر[٢].

ومثل هؤلاء الناس ربما كانوا قادرين على أكل اللحم اسبوعياً وفي المواسم، وربما كان كثيراً من الناس لا يأكلون اللحم سوى ايام الاعياد، ولاسيما في عيد الأضحى، لذلك نجد أن ابن الحاج[٣] كان يفضل أن لا يكون الطبخ أي اللحم في المطابخ العامة ، ذلك أن الفقراء ربما يشمون رائحته ويرغبون في أكله ، وهو ما لا يقدرون عليه، الامر الذي يؤدي ببعضهم إلى السؤال.

واذا انتقلنا إلى لحم البقر نجده ارخص الى حدٍ ما من لحم الضأن ، لكن في الوقت نفسه كان من الصعب على كثير من الناس أن يأكله بصورة دائمة، كذلك الدجاج كان متاحاً على نطاق واسع، ويؤشر وجود بعض الحيوانات في احواش المناطق السكنية الى أن أصحاب هذه المناطق الحضرية كانوا يربون الدجاج للحصول على بيضه وتفريخه ايضاً، أما الفقراء فكانوا لشدة فقرهم يمزجون الخضروات بالخبز في صحن يسمى الطبيخ، وهم يأكلون الخبز مع أي طعام تقريباً، ومن الطبيعي ان الماء ايضاً كان ضرورة للسكان الفقراء وكان يمكن الحصول عليه من عدة مصادر، فقد كان بعض الناس يحفرون آبار قرب منازلهم، اما البعض الاخر فكان لوجود السبيل الذي أسسه احد الاوقاف يقدم لهم الماء بالمجان، ولا يمكن للمرء سوى ان يتأمل تأثيرات الغذاء الذي وصفناه على الغذاء فمن الواضح كان السبب الرئيسي كان ملء المعدة بغض النظر عن قيمة الغذاء او النوعية ويمكن توقع هذا فقط في حالة الناس الذين لا يمكنهم تحمل رفاهية الغذاء المتنوع الغالي الثمن ، ومن الخصائص المميزة لغذاء الفئة الدنيا ان التوابل

---

(١) الرطل: هو أكثر وحدات الوزن استعمالاً, ويساوي الرطل (١٢) أوقية.ينظر: هنتس, المكاييل والاوزان, ص٣١.

(٢) صبره، الفقر والاحسان في مصر، ص١٨٨.

(٣) المدخل، ج٤، ص١٨٨- ١٨٩.

الاغلى ثمناً التي كان يستهلكها الاغنياء من افراد المجتمع كانت تستبدل بالسمن والزيوت الرخيصة[١].

واذا انتقلنا الى معالجات دولة المماليك البحرية للحد من الازمات الاقتصادية نجد أنها تراوحت بين سلطان وآخر، لكنها بالمجمل تدل على اهتمام بأحوال المجتمع الذي عصفت به الازمات، ولعل ما قام به السلطان الظاهر بيبرس من أعمال شجعت على الرخاء الاقتصادي كبناء الجسور وتطوير الخلجان والقنوات الزراعية حتى كان لها أثرها في سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م، فقد انخفضت الاسعار بشكل ملحوظ ، إذ بلغ أردب القمح خمسة دراهم ، وأردب الشعير ثلاثة دراهم ، أما بقية الحبوب فكانت على درهمين[٢] . ومن ضمن اهتماماته بالوضع المعاشي قيامه بإرسال الغلال من مصر الى بلاد الشام فرست المراكب في ميناء غزة ، ومنها تم التوزيع على أنحاء بلاد الشام[٣].

لكن الرخاء المعيشي لم يدم طويلا إِذْ سرعان ما شهدت مصر أزمة اقتصادية أثرت على المستوى المعاشي ففي سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م بلغ أردب القمح تسعين درهما ثم ارتفع الى مائة وخمسين درهما[٤]، ذلك أن حاشية السلطان العادل كتبغا قاموا بالتعدي على الناس بأخذهم الاموال والبراطيل(الرشوة) ، فتضرروا جراء ذلك وضاقت بهم الحالة [٥] . وقد صور المقريزي[٦] تلك الحالة بعبارة موجزة وبطريقة مؤثرة قائلاً **((فعظم الجوع، وانتهب الخبز من الافران والحوانيت، حتى كان العجين إذا خرج الى الفرن انتهبه الناس فلا يحمل الى الفرن ، ولا يخرج الخبز منه إلا ومعه عدة يحمونه بالعصا من النهابة ، فكان من الناس من يلقي نفسه على الخبز ليخطف منه ، ولا يبالي بما ينال رأسه وبدنه من الضرب لشدة ما نزل به من الجوع))**.

---

(١) صبره، الفقر والاحسان في مصر، ص١٨٩.

(٢) العيني، عقد الجمان، ص ١٩٠.

(٣) الصقاعي، فضل الله بن ابي الفخر (ت ٧٢٦هـ/): تالي كتاب وفيات الاعيان، تحقيق: جاكلين سوبلة, منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، (دمشق: ١٩٧٤م), ص٥١ .

(٤) المقريزي، السلوك ، ج١ ، ص٨٨٠.

(٥) العيني، عقد الجمان، ج٣, ص ٣٠٣.

(٦) اغاثة الامة, ص١٠٨.

لكن الحالة المعيشية بدأت بالتحسن تدريجيا لا سيما في سلطنة الناصر قلاوون، الذي كانت له اصلاحات حقيقية في المجال الاقتصادي ولا أدق من وصف المقريزي[1] لتلك الاصلاحات الذي ذكرها بالقول **((وَأحكم السُّلْطَان عَامَّة أَرض مصر قبليها وبحريها بالترع والجسور حَتَّى أتقن أمرهَا ، وَكَانَ يركب إِلَيْهَا برسم الصَّيْد فِي كل قَلِيل ويتفقد أحوالها وَينظر فِي جسورها وتراعها وقناطرها بِنَفسِهِ ، بِحَيْثُ أَنه لم يدع فِي أَيَّامه موضعا مِنْهَا حَتَّى عمل فِيهِ مَا يحْتَاج إِلَيْهِ ... فَكَانَ يقترح الْمَنَافِع من قبله بعد أَن كَانَ يزهده فِيمَا يَأْمر بِهِ حذاق المهندسين ... وَيفْعل مَا بدا لَهُ من مصَالح الْبِلَاد فَتَأْتِيه أغراضه على مَا يحب ويختار فَزَاد فِي أَيَّامه خراج مصر زِيَادَة هائلة فِي سَائِر الأقاليم. وَكَانَ إِذا سمع بشراقي بلد أَو قَرْيَة من الْقرى أهمه ذَلِك وَسَأَلَ المقطع بهَا عَن أَحْوَال الْقرْيَة الْمَذْكُورَة غير مرّة بل كلما وَقع بَصَره عَلَيْهِ وَلَا يزَال يفحص عَن ذَلِك حَتَّى يتَوَصَّل إِلَى ريها بِكُل مَا تصل قدرته إِلَيْهِ. كل ذَلِك وصاحبها لَا يسْأَله فِي شَيْء من أمرهَا فيكلمه بعض الْأُمَرَاء فِي ذَلِك فَيَقُول: هَذِه قريتي وَأَنا الْمَلْزُوم بهَا والمسؤول عَنْهَا فَكَانَ هَذَا دأبه وَكَانَ يفرح إِذا سَأَلَهُ بعض الأجناد فِي عمل مصلحَة بَلَده بِسَبَب عمل جسر أَو تقاوي أَو غير ذَلِك وينبل ذَلِك الرجل فِي عينه وَيفْعل لَهُ مَا طلبه من غير توقف وَلَا ملل فِي إِخْرَاج المَال فَإِن كَلمه أحد فِي ذَلِك فَيَقُول: فَلم نجمع المَال فِي بَيت الْمُسلمين إِلَّا لهَذَا الْمَعْنى وَغَيره فَهَذِهِ كَانَت عوائده))**.

ومن إِصلاحاتهِ الاقتصادية هي الاهتمام بالعملة التي كان لها تأثير ايجابي على مستوى المعيشة ، فقد أمر بجعل سعر صرف الدينار بستة عشر درهماً، كذلك أمر بضرب نقود (فلوس) جديدة بعدما أصبحت القديمة مغشوشة وحددها بدرهمين ونصف[2]. ومن آثار ذلك أن عم الرخاء المعيشي كما في سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م فكان سعر أردب القمح ثلاثة عشر درهماً ، وأردب الشعير عشرة دراهم ، وأردب الفول سبعة دراهم[3]. وعندما ارتفعت الاسعار في مدينة دمشق سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م نتيجة انتشار الجراد وضرره بالمواد الغذائية ، أرسلت الغلال من مصر الى

(١) السلوك ، ج٣، ص٣١٦ .

(٢) العيني، عقد الجمان، ج٣, ص٧٨ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه، ج٣, ص١٤٥.

بلاد الشام وأبطل السلطان مكس الغلة المعمول به في بلاد الشام ، وكان نتيجة ذلك انخفاض أسعار الحبوب فبيعت الغرارة بثمانين درهما بعد أن كانت بمائتي درهم[١].

وبعد وفاة السلطان الناصر قلاوون شهدت البلاد اضطرابا سياسيا واقتصاديا تمثل في ارتفاع الاسعار وغلاء المعيشة ، ففي سنة ٧٥١هـ/ ١٣٦٩م أصبح أردب القمح سبعة وثلاثين درهما ، وسعر اللحم مائة وخمسين درهما للقنطار[٢]، الامر الذي دفع المحتسب أن يأمر الولاة في الشام الى تصدير الاغنام الى مصر لتلافي الازمة[٣] .

كذلك أثر فيضان نهر النيل على مستوى المعيشة وغلاء الاسعار ، نتيجة الوفيات جراء الفيضان ، وقد علق على ذلك ابن كثير[٤] في حوادث سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م قائلاً **((وَتَوَاتَرَ خَبَرُ الْفَنَاءِ الَّذِي بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ مِنْ فَيْضِ النِّيلِ عِنْدَهُمْ، عَلَى خِلَافِ الْمُعْتَادِ، فَبَلَغَنَا أَنَّهُ يَمُوتُ مِنْ أَهْلِهَا كُلَّ يَوْمٍ فَوْقَ الْأَلْفَيْنِ، فَأَمَّا الْمَرَضُ فَكَثِيرٌ جِدًّا، وَغَلَتِ الْأَسْعَارُ; لِقِلَّةِ مِنْ يَتَعَاطَى الْأَشْغَالَ، وَغَلَا السُّكَّرُ وَالْمِيَاهُ وَالْفَاكِهَةُ جِدًّا))**.

ويبدو أن مصر لم تنعم بالحالة المعيشية التي تؤمن لأفرادها العيش الرغيد ، ففي سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م شهدت مصر أزمة اقتصادية لعدم وفاء النيل حتى غلت أسعار السلع والمواد الغذائية، فقد أصبح سعر أردب القمح مائة وعشرون درهماً، ورغيف الخبز بأربعة دراهم[٥]، كذلك أصبح أردب الشعير ثمانون درهماً، ورطل لحم الضأن بدرهمين، ورطل لحم البقر بدرهم ونصف، حتى اضطر الناس إلى أكل خبز الذرة والنخال[٦]. وعلى أثر ذلك عم الفقر شرائح كبيرة من الناس فصار الفقراء يتجولون في الشوارع يبحثون ما يسد رمقهم فكان الفقير ينادي **((لله لبابة قدر شحمة أذني أشمها وخذوها ، فلا يزال كذلك حتى يموت))** [٧] .

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٨، ص١١٧.

(٢) القنطار: يساوي (١٠٠) رطل, وكل رطل (١٤٤) درهم, ويساوي تقريباً (٤٥)كغم. هنتس, المكاييل والاوزان, ص٤٦.

(٣) المقريزي, السلوك، ج٤، ص١٢٣.

(٤) البداية والنهاية، ج ٤، ص٦٢٠.

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ص١٢٥.

(٦) المصدر نفسه، ص١٢٦.

(٧) المقريزي، السلوك، ج٤، ص٤٧٣.

ولعل غلاء الاسعار كان سبباً مباشراً في انخفاض المستوى المعيشي لعامة الناس لاسيما الفقراء الذين لم يكن لديهم ما يتقوون به على سد احتياجاتهم تحديدا في أوقات الوباء، حتى أن بعضهم كان يتداوى بالسكر لعدم قدرته على شراء الدواء[١]. بل أن في حالة ارتفاع الاسعار نجد أن أعداداً كبيرة من الناس يجتمعون أمام الخبازين والافران لعلهم يجدوا ما يطلبونه[٢] .

وفي مقابل ذلك كانت هناك عدد من الخدمات التي قدمت للفقراء في محاولة لرفع كاهل الفقر عنهم من ذلك الخانقاوات التي حوت اعداداً من الصوفية كما في خانقاه ركن الدين بيبرس الجاشنكير، التي كان بها لما عملت في سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م **((اربعمائة صوفي، بالرباط مائة من الجند وابناء الناس الذي قعد بهم الوقت))**[٣].

وعلى ذلك يمكن القول: إن الخانقاه كانت تؤدي ايضاً وظيفة المدرسة لتعليم وتخريج الطلاب، كما عني في بعض الخانقاوات ببناء كتاب يقرأ فيه اطفال المسلمين الايتام كتاب الله تعالى، ويتعلمون الخط، ولهم في كل يوم الخبز وغيره[٤].

ولم تقتصر ممارسة التصوف والانقطاع للعبادة في العصر المملوكي على الخانقاوات، بل كان للأربطة والزوايا دور كبير في هذا الجال، والرباط هو بيت الصوفية ومنزلهم، وقد كان من المتعارف عليه ان يسكن الرباط عدد من الصوفية، ويتم الصرف عليه من ريع أوقافه[٥].

كما قامت اربطة بمسؤولية الجامع فرباط الافرم الذي ينسب الى الأمير عز الدين ايبك الأفرم قد **((رتب فيه صوفية وشيخاً وإماماً، وجعل فيه منبراً يخطب للجمعة والعيدين، وقرر لهم معاليم اوقاف رصدت لهم))**[٦].

أَمَّا الزوايا فقد ارتبطت بأسماء شخصيات دينية معروفة بالفضيلة مشهورة بالفقه، ولهم أتباع ومريدون ومعارف، كما كان لهم حظوة لدى السلاطين المماليك، ويذكر المقريزي[٧] ان

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤٧ .
(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص١٧٩ .
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٤١٧.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٢١.
(٥) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٢٧.
(٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٣٠.
(٧) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٣٤.

بعضهم **((كان يجلس للوعظ فتجمع اليه الناس ويذكرهم ويروي الحديث ويشارك في علم الطب وغيره من العلوم))**.

وتضمن تاريخ الزوايا في مصر في العصر المملوكي حوادث تستحق الملاحظة، من ذلك ما يذكره ابن حجر العسقلاني[١] ان محمد بن عمر البالسي وكان زاهداً متعبداً **((انقطع بزاوية جده، وجمع له سيره، وعرض عليه بعض ارباب الدولة ان يرتب له راتب فامتنع ووقف عليها بعض التجار بعض قرية فقنع بها))** .

وقد يكون تعليل هذا التصرف كامناً وراء رغبة هذا الزاهد في الحصول على مورد شرعي ثابت للإنفاق على الزاوية والمستقرين بها على ان يستمر هذا الانفاق على الدوام، ولعل هذا يفسر لنا سبب رفضه راتباً منتظماً خشية ان يرتبط هذا الراتب شخصه في حياته فقط، ويبطل عند وفاته فيكون في ابطاله وانقطاعه خراب الزوايا واندثارها.

في حين ريع الوقف يستمر، فيجد من يخلفه في الزاوية مصدراً للصرف، واستمرار الزاوية في ممارسة وظائفها الدينية[٢].

إلى جانب ذلك قد يكون في المرتب نوع من الشفقة والاحسان الذي يرفضه الزهاد، على حين ريع الوقف مساعدة اجتماعية، تشمل الزاوية كلها كمركز ديني للتعبد في العزلة والتصوف والتدريس، رغم انه يبدو ان قيمة الراتب الذي رفضه هذا الزاهد اكثر بكثير مما يحصل عليه طبقاً لنظام الوقف، ولعلنا ندرك من هذه الحادثة ان اقامة الزهاد في الزوايا لم يكن بقصد استدرار عطف الناس، ولنفقة الميسورين، إنما ابتعاد عن ملذات الدنيا والانعزال في محراب العباد[٣].

---

(١) ابن حجر العسقلاني, الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٤٢.

(٣) الحجي، حياة ناصر، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مكتبة الفلاح، ط١، (الكويت : ١٤٠٣هـ)، ص١٣٩.

المبحث الثاني

المستــوى المعيشـــي للعلمـــــاء

عنـد الحـديث عـن مسـتوى المعيشـة للعلمـاء، وفـي ضـوء اسـتعراض الحيـاة المعيشـية والاقتصادية للعلماء من خلال تتبع الاعمال التي زاولوها ، فضلاً عن الوظائف التي تقلدوها نجد أن مستوى المعيشة لم يكن على مستوى واحد ، فتارة يكون المستوى طبيعياً عاش فيه العلماء بنوع من النعيم والغنى ، وأخرى كان فيه العلماء المتضرر الاكبر جراء غلاء المعيشة(١).

وإذا اردنا أن نعطي وصفاً عمليا لما كان عليه العلماء من مستوى معاشي فإنه يجدر بنا أن نقوم بدراسة ما كان يتقاضونه من مرتبات أو أجور ، فضلاً عن المصادر المالية التي كانت تأتيهم سواء كانت مرتبات أو أوقاف جليلة.

فبالنسبة للعلماء الذين كانوا ضمن المؤسسة التعليمية سواء في المساجد أو المدارس، فكانوا يتقاضون مرتبات شهرية منتظمة حسب مكانة المدرس العلمية وسمعته وشروط الواقف، وتتفاوت الاجور أو المرتبات من مدرسة الى أخرى، فضلاً عن المخصصات والاعانات في مواسم معينة من الانتاج كمواسم العنب والبطيخ، وخلال المناسبات والاعياد وفي ايام الغلاء والقحط والجفاف(٢). كذلك نجد أن العلماء كانوا في طليعة الفئة المستهدفة من قبل سلاطين المماليك لاسيما في أوقات المحن والغلاء ، فقد أصبح مستوى المعيشة صعبا وقاسيا على الجميع بما فيهم العلماء ، حتى أن أردب القمح وصل مطحوناً بألف درهم ، لذلك تمَّ إرسال المعونات الى كل واحد من المدرسين في المدارس والخوانق والمشايخ والزوايا ، إذ بلغت عشرة دنانير وارداً من القمح الطيب، وفي كل يوم عشرين الف رغيف من الدقيق الابيض يفرق عليهم وعلى الفقراء والمساكين والغرباء المقيمين في الجوامع والمدارس والخوانق والزوايا ، وكان قبل ذلك لا يجدون سوى خبز الشعير وخبز الحمص والفول، ومنهم من كان يبقى بلا خبز لمدة عشرة أيام أو أكثر، والحال بالنسبة للأغنياء الذين سعوا بأموالهم للحصول على الغلال فلا يجدون شيئاً فان وجدوا، فيكون قليلا وبمشقة(٣).

---

(١) علاوي، الحياة المعيشية، ص١٦٥.

(٢) العناقرة، محمد: المدارس في مصر في عصر دولة المماليك، المجلس الاعلى للثقافة،ط١، (القاهرة: ٢٠١٥م)، ص٢٥٤.

(٣) العيني، السيف المهند، ص٢٢٦-٢٦٧.

اختلفت المرتبات الشهرية بالنسبة للعلماء الذين شغلوا وظائف متعددة في دولة المماليك البحرية، كوظيفة مدرس الحنابلة بالمدرسة الاشرفية فكان يتقاضى خمسون درهماً شهرياً، مع صرف ستة أرطال من الخبز اليومي، وكذلك الحال في وظيفة مدرس الشافعية بالمدرسة الاشرفية فكان يتقاضى مائة درهم شهرياً، ومع ذلك يعطى له ايضاً ستة أرطال من الخبز اليومي، ووظيفة مدرس الحنفية بمدرسة الامير سودون النوروزي، فكان يتقاضى مائتي وخمسون درهماً تعطى له مقابل إلقاء دروس التفسير والقرآن والحديث، عقب صلاة الظهر الى أذان العصر او من طلوع الشمس الى الزوال[١]. وكان العلماء الذين تولوا التدريس بالمدرسة الصلاحية، يتقاضون راتبا شهريا قدره عشرة دنانير، وللناظر أربعون دينارا، ومع ذلك يعطى لهم ستة ارطال من الخبز وراويتان من ماء النيل[٢] . ولم يختلف مرتب المدرسة السيوفية التي هي للعلماء الحنفية عن سابقاتها من المدارس ، فكان يتقاضى أحد عشر ديناراً[٣]، أما مدرسوا مدرسة الامير جمال الدين الاستادار في القاهرة ، فكانوا يتقاضون شهريا ثلاثمائة درهماً، ويعطى لهم ثلاثة أرطال من الخبز[٤].

تأثير الوقف على مستوى المعيشة

يمكن القول: إنَّ رغبة سلاطين المماليك في التقرب الى المجتمع كان من أهم الأسباب التي ادت الى ازدهار الوقف ، فقد تعددت وتوسعت المظاهر والوسائل الداخلية التي مارسها المماليك للتقرب الى المجتمع خدمة لكل فئة فوجدت الجوامع والمساجد لأهل البيت واحبائه، والمدارس لطالبي العلم والتعليم والاربطة والزوايا مأوى للفقراء والمحتاجين، والخانقات للصوفية ، وبالنتيجة زادت اوقاف العصر زيادة كبيرة استلزمها الانفاق على هذه المراكز، فما ان ينتهي العمل من انشاء مسجد او تشييد مدرسة او اقامة خانقاه حتى يكون الرصد في الاوقاف استوفى عدداً هائلاً من الدور والاراضي والاجزاء لتكون مصدراً شرعياً ثابتاً للصرف، وقد اشترك في تدعيم هذه الرابطة الدينية مع أفراد المجتمع السلاطين والامراء وزوجات السلاطين على حدٍ سواء

(١) العناقرة، المدارس في مصر، ص٢٥٧.
(٢) ابن حجر العسقلاني، رفع الاصر، ص١٥٠ .
(٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج ٤، ص٢٠٤.
(٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص٢٦١.

وحسب قدراتهم المالية، ومن هنا لابد لنا من دراسة بعض المظاهر الحيوية التي اسهمت بل كانت الاوقاف هي الاساس في وجودها[١].

لذلك يعد نظام الوقف هو الوسيلة التي أمكن بواسطتها تنظيم هذه الثروة، إذ تكون مصدراً شرعياً ثابتاً للإنفاق على هذه المراكز دون توقف او نقص، وتعد الجوامع أبرز المظاهر الدينية التي كان الوقف من عوامل وجودها، فقد شهد عصر الناصر محمد انشاء عدد كبير من المساجد وهي جامع السلطان الناصر محمد عند متمم الخليج الناصري والذي يعرف باسم الجامع الناصري وقد انشئ سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م[٢]، فصارت عدة جوامع تقام فيها الخطب ، فضلاً عن ثلاثين جامعا في طور الخطبة[٣].

وهذا العدد الكبير من الجوامع التي تم انشاؤها في عصر الناصر محمد تعطينا الحق في ان نصف ذلك العصر بالازدهار، وان نظام الوقف كان يمر في نشاط ملحوظ، وقد كثرت اقوال مؤرخي العصر المملوكي حول عدد الجوامع والمساجد التي شيدت في مصر ايام السلاطين المماليك، فذكر المقريزي[٤] ان عدد المساجد التي تقام بها الجمعة مائة وثلاثين مسجداً، اما القلقشندي[٥] فذكر انها اي المساجد **((أكثر من ان تحصى، وأعز من ان تنقص))**.

وان بعض هذه المساجد اقامتها الدولة، والبعض الاخر انشأها الفقهاء او رجال الدولة الاتقياء، وكان رصد الاوقاف عند بناء كل مسجد أمراً مهماً حتى يمكن استمرار الانفاق عليه، وكان يعني بعمارتها عناية كبيرة، بل ويعمل على تحديدها اذا استلزم الوضع ذلك، كما احتوى بعضها على اربطة وزوايا ينقطع فيها الاتقياء للتعبد، بل منها ما احتوى على عدد بيوت للنساء المنقطعات[٦].

ولم يقتصر اثر الاوقاف على التعليم بما قدمته أَماكن العبادة من توفير مراكز لقراءة القرآن الكريم، او مجالس تشاور مع الفقهاء والقضاة او قاعات للتدريس وتعليم الاطفال واليتامى، بل امتد ذلك ليشمل اقامة مؤسسات يكون الهدف منها ممارسة ونشر التعليم، وقد اشترك

(١) الحجي، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده, ص٩٢.
(٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ص١١٤-١١٥.
(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٩٨.
(٤) المواعظ، الاعتبار، ج٢، ص٢٤٥.
(٥) صبح الاعشى، ج٣، ص٣٦٥.
(٦) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٠٩، ٤١١، ٤١٩، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩.

السلاطين الامراء والمقتدرين من العلماء في اقامة هذا الصرح من التعليم، فتعددت المدارس وزادت العناية بالتعليم[١]، وتاريخ انشاء المدارس في مصر يعود بالتحديد الدقيق الى ايام السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب، حيث بنى لكل من الطائفتين الشافعية والحنفية مدرسة بمدينة مصر[٢].

ومن ثم بدأت قافلة التعليم تسير بعدد ضئيل من المدارس، فغدت مصر مركزاً حضارياً للعلم ونشر التعليم، ولا ادل على ذلك التفوق والتقدم في مجال الحياة العلمية والتعليمية من ان الكانم من طوائف التكرور[٣]، لما وصلوا الى مصر سنة "بضع واربعين وستمائة"، قاصدين الحج دفعوا الى القاضي علم الدين بن رشيق مالاً بنى به مدرسة للمالكية، ولما انتهى بناؤها حرس بها القاضي ابن رشيق فعرفت باسمه وصار لها في بلاد التكرور سرحة عظيمة، وكانوا يرسلون لها الاموال في اغلب السنين[٤].

وقد كانت نتيجة العلاقة الوثيقة والرابطة القوية بين سلاطين المماليك من ناحية وبين فئات العلماء والفقهاء والمتعلمين من ناحية اخرى، فليس هناك ما هو أكثر فعالية من هذه الرابطة القوية بين الطرفين المتناقضين لإقناع المجتمع بمختلف فئاته على تقبل الوضع السياسي والرضا بحكم المماليك والدخلاء فضلا عن ذلك امعن مؤسسو هذه المدارس في الصرف على بنائها، وتوفير الاساتذة الاكفاء وما يلزم من مواد وادوات لتدريس مختلف العلوم العقائدية والادبية والعلمية، ولكن رغم تباينها عن مدارس الدولة الايوبية في الفخامة العمرانية والتقدم العلمي الا ان كل هذه المدارس تتفق في المظاهر المشتركة والاهداف الواحدة، من ذلك جميع ما انشئ من مدارس أيام الدولة الايوبية في العصر المملوكي كان يعتمد في الصرف عليه على نظام الوقف الذي كان يمثل مصدراً شرعياً ثابتاً للصرف والإنفاقَ على هذه المدارس[٥].

(١) الحجي، السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ص١٠٥.

(٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٣٦٣.

(٣) عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص٢٤٢- ٢٤٥.

(٤) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٣٦٥.

(٥) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص٥٠؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي، ج١، ص٣٩٢- ٣٩٣.

وبفضل نظام الوقف استطاعت خمس وسبعون مدرسة ان تؤدي وظائفها التعليمية بانتظام ، وكان المدرسون في هذه المدارس يختارون بعناية كبيرة، ويتم تعيينهم من قبل السلطان[١].

وقد كان جميع مؤسسي هذه المدارس من السلاطين والوزراء والامراء والاغنياء والعلماء المقتدرين، من ثم كانت لديهم الامكانيات الاقتصادية الوفيرة لوقف مختلف الانواع من الاملاك والعقارات وغير ذلك من الاجزاء ومن جملة ما يوقف على هذه المدارس عدد كبير من القرى والضياع والنواحي[٢].

ثم أخذ النويري[٣] بعد ذلك يعدد ما تم وقفه على المدرسة الناصرية من قيساريات وقاعات وحوانيت وحمامات وغير ذلك من المباني، وكلها تدر الايجارات الوفيرة، حيث يشغل كل ذلك للصرف على تعمير المدرسة ومرتبات ارباب الوظائف الدينية، والتعليمية، والخدمات المختلفة.

ويؤكد المقريزي[٤] في مواقع متفرقة على ان الاوقاف كانت العمود الفقري لذلك الهيكل التعليمي القائم على تلك المدارس الكثيرة، وبدون ذلك الريع الشرعي الذي تدره الاوقاف لا يمكن لأي مدرسة ان تمارس وظائفها او تحقق الهدف الذي تم تشييدها من اجله. وقد شهد العصر المملوكي انشاء ثلاث مدارس تجمدت فيها الحياة التعليمية بسبب عدم توفر ذلك الشريان الاقتصادي، ومن ريع الاوقاف هذا كان يصرف في بعض الاحيان للفقهاء المقيمين في المدرسة معلوم يعيشون منه[٥].

وكان هذا المعلوم هو مصدر الرزق الوحيد لبعض الفقهاء، ومن ناحية أُخرى كان هو السبب الوحيد أحياناً لبقاء هذه المدارس وعدم وصول الخراب اليها[٦]، كما كان يصرف من ريع الوقف هذه مرتبات للطلبة[٧]، كل هذا يؤكد ان الاوقاف كانت هي القلب الذي يعمل على

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٤٣، ٩٥، ١٠٤، ١٠٥.
(٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٣٦٤.
(٣) نهاية الارب، ج٣، ص٣٤١.
(٤) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٤٠١.
(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٦٤.
(٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٦٤.
(٧) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٦٥.

استمرار الحياة التعليمية في هذه المدارس بانتظام ودون تغيير وبدونها تصبح هذه الاماكن خراباً لا منفعة من ورائه، ففي المدرسة الناصرية كان واجب على الناظر أَنْ "يصرف كل واحد من المدرسين ولمعيديه وطلبته والداعي عنده والنقيب ما يراه من التسوية والتفضيل"(١).

ويلاحظ ان المرتبات التي تصرف للطلبة الدارسين على أيدي فقهاء المذاهب الاسلامية الاربعة تختلف من طائفة الى طائفة، كما كانت قيمة هذه المرتبات من اسباب جذب الطلبة نحو احد المذاهب دون غيره، مثال على ذلك ما ذكره المقريزي(٢) انه ((**في سنة سبع وستين وسبعمائة جدد الأمير بلبغا العمري الخاصكي بجامع ابن طولون فيه سبع مدرسين للحنفية، لكل فقيه من الطلبة في الشهر اربعين درهماً واردب قمح فانتقل جماعة من الشافعية الى مذهب الحنفية**)).

والى جانب ما كان يحصل عليه ارباب الوظائف من مرتبات منتظمة كانت توزيع عليهم الخيرات المختلفة في المناسبات الديني حيث يقتطع ذلك مشاريع الاوقاف كما جاء في وصف المدرسة الحجازية ((**وجعلت على هذه الجهات عدد اوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية وكان يفرق فيهم كل سنة أيام عيد الفطر الكعك والخشكنانك، وفي عيد الاضحى اللحم، وفي شهر رمضان يطبخ لهم الطعام**))(٣).

اما في المدرسة الناصرية فإنه ((**جعل للناظر ايضاً ان يصرف من ريع الوقف اذا فضل عن المرتب المعين فيه، في ليالي الجمع والاعياد والمواسم وشهر رمضان، ما يراه في التوسعة عليهم، فان تعذر الصرف لجهة من الجهات عاد الصرف الى ما فيها، فان تعذر صرف ذلك للفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا**)) (٤).

واحتوى عدد من المدارس على مكاتب سبيل تقام بجانبها معونة للأيتام والمحتاجين، حيث يكون هدفها تعليم ايتام المعلمين وتجري لهم الجرايات والكسوة(٥)، وعادة تلحق مكاتب السبيل هذه إما المدارس او المساجد او غير ذلك من المؤسسات الدينية او التعليمية، وقد يكون السبب في عدم قيام مراكز تعليم اليتامى هذه مستقلة بذاتها هو الخوف من اندثارها وسرعة

(١) النويري، نهاية الارب، ج٣، ص٣٤٠.

(٢) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٢, ص٣٨٤.

(٤) النويري، نهاية الارب، ج٣، ص٣٤١، ٣٤٢.

(٥) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٤.

وصول الخراب اليها، ولذا كانت تلحق بهذه المؤسسات الكبيرة القادرة على تمويلها وإمدادها بالمدرسين والطعام والكتب، وغير ذلك ما تحتاجه لتواصل مسيرتها في تعليم الايتام وحسب توجيههم، فالمدرسة الحجازية مثلاً قد اقيم بجوارها مكتب للسبيل يضم عدداً من ايتام المسلمين[١]، مع مؤدب يعلمهم القرآن الكريم، ويوزع عليهم في كل يوم، لكل واحد منهم خمسة ارغفة من الخبز، ومبلغ من المال، فضلا عن كسوتي الشتاء والصيف[٢].

ودرج في كثير من الاحيان على ان تلحق بالمدرسة قبة يدفن فيها الواقف صاحب المدرسة او يبنى له قبراً في احد جوانبها[٣]، فالمقريزي[٤] في وصفه للمدرسة الناصرية التي انشأها الناصر محمد ذكر أنه **((وانشأ بجوار هذه المدرسة من داخل بابها قبة جليلة.. فلما مات ابنه آنوك من الخاتون طغاي في يوم الجمعة ربيعة الاول سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م وعمره ثماني عشرة سنة دفنه بهذه القبة وعمل عليها وقفاً يختص بها))**.

فضلا عن ذلك كان بعض الفضلاء المقتدرين يعملون على وفق دروس قرآنية في الترب طلباً للرحمة والمغفرة[٥].

كما كان بعض الواقفين حين يبني مدرسة يوقف فيها كتباً جيدة[٦]، كما اهتم أَهلُ العلم بوقف كتبهم على الطلبة[٧]، وقد يكون السبب من وراء ذلك هو صعوبة حصول الطلبة على الكتب عكس الحال مع المدرسين، اما لأسباب مادية او لأسباب اجتماعية وكان بعضهم يحرص حين يوقف كتباً ان يضعها في المسجد او الجامع[٨].

---

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٣٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٨٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٨٢.

(٥) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٦٥.

(٦) المصدر نفسه، ج٢، ص١٥٥، ج٥، ص٩٧.

(٧) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٦٤.

(٨) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٨– ٢٩٣.

وبنى بعض الواقفين الأخيار في مكوسهم اربطة للنساء لإحياء الذكر والاقامة الدائمة، عوناً ومساعدة وطلباً للأجر، مثال ذلك رباط النساء الذي بناه الأمير شمس الدين سنقر السعدي نقيب المماليك السلطانية في مدرسة السعدية التي انشأها سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م [١].

وبذلك يكون نظام الوقف قد خدم تلك الحركة العلمية التي تميزت بها مصر في عصر المماليك، وكان ازدهار العصر بعدد كبير من العلماء والفقهاء واهل الشرع والشريعة من اهم الاسباب التي هيأت لتلك الحركة العلمية الظهور والتفوق، فكما سنت الاوقاف هذه المدارس والمكتبات ومكاتب السبيل ودور الحديث من الناحية الاقتصادية ، كانت تلك الشريحة المتعلمة والحريصة على طلب العلم ونشر التعليم سنداً اكاديمياً قوياً كفل لتلك الحركة العلمية فرصة الاستمرار والتقدم[٢].

وقد تمَّ انشاء الخانقاوات ايضاً، ويعود الفضل في الاساس لهذا التنظيم الى نظام الاوقاف، وما يسرته من ريع للمصارف المختلفة في الخانقاه حتى امكنها هذا من الاستقلال الشامل ، وقد نستطيع بالدراسة التفصيلية لخانقاه سرياقوس[٣]، ان نصل الى ما وصلت اليه الخانقاوات في العصر المملوكي من الارتقاء في التنظيم الداخلي في الخانقاه، والذي يشمل نوعية المعيشة، وأساليب الدرس، وتوزيع الخدمة، وتصنيف الحقوق والواجبات، حتى امكن لهذه الخانقاوات ان تستمر بأسلوب الاكتفاء الذاتي في الاستقرار والدروس والخدمة وابتدأ بعمارة قصور سرياقوس في آخر ذي الحجة سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م[٤].

وبعد ذلك مع بداية سنة ٧٢٥هـ /١٣٢٤ م خرج السلطان الى سرياقوس ومعه عدد من المهندسين وعين موضعاً ليبني فيه خانقاه بها مائة خلوة وبجانبها جامع تقام فيه الجمعة، ودكان يرسم ضيافة الواردين، وحمام ومطبخ، ورتب السلطان لها ايضاً قصوراً برسم الامراء الخاصكية، فبدأ العمل بكل ذلك في الحال حتى كملت في اربعين يوماً[٥].

وقد رصد لخانقاه سرياقوس الكثير من الاوقاف في مختلف الانحاء، حتى يضمن واقفها ريعها يغطي جميع مصارفها وكافة احتياجاتها، وقد شملت هذه الاوقاف الدور والحوانيت

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٣٩٧.

(٢) الحجي، السلطان الناصر بن قلاوون، ص١٢٤.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١١، ص٣٧١، ٣٧٤.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٥١.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٨٠-٨٣.

والاراضي المزروعة والبساتين والمعاصر والمعامل والافران والمعاجن وتنانير الشواء وآبار الماء وغير ذلك من الاجزاء التي يمكن استثمارها والاستفادة من ريعها[١].

وكان هناك نوع من التنظيم الاقتصادي الدقيق الذي يشمل مصارف النفقة اليومية والمرتبات الشهرية ومكافآت ومختلف انواع الخدمة، وهذا التنظيم يتناسب الى حد كبير مع تصنيف الحقوق والواجبات لتحقيق نوع من الاعتقاد الذاتي في الاستقرار والمعيشة، ويتولى شيخ الخانقاه مهمة الاشراف على سير هذا التنظيم الاقتصادي الاجتماعي داخل الخانقاه، والاستفادة من الاوقاف بمختلف طرق الاستثمار من ناحية اخرى ذلك ن الناظر يصرف من ريع هذا الوقف مبلغ اربعمائة درهم فترة كل شهر للمباشرين، كما يصرف مبلغ الفي درهم تعود للعمارة والترميم في المباني كما يعمل على زيادة الاوقاف بالادخار حتى يتجمع لديه مبلغ عشرة آلاف نقره يشتري بها عقاراً يستثمر لمصلحة هذه الخانقاه[٢].

ويجدر بنا ان ندرك ان الاهتمام بتحديد اعداد الصوفية المقيمين الواردين كان الهدف منها المحافظة على مستوى المعيشة داخل الخانقاه، وبالتالي توفير الراحة لكل فرد فيها، حيث ان زيادة اعداد الصوفية سيؤدي الى انخفاض مستوى المعيشة، وبالتالي عدم ارتياح الصوفية، من ذلك ما حدث في الخانقاه الاصلاحية دار سعيد السعداء، حيث **((نزل الامير سودون عندهم جماعة كثيرة عجز ريع الوقف عن القيام لهم بجميع ما ذكر، فقطعت الحلوى والصابون والكسوة، فوقع العزم على غلق مطبخ الخانقاه وايضاً الطعام.. واشار القضاة على السالمي ان يعمل بشروط الواقف))**[٣].

ثم ان من الضروري القاء نظرة على مستوى معيشة العلماء، والتعرف من خلالها على مدى رفاهية اصحاب الوظائف العليا والثروات والاشارة الى الادنى مرتبة ودخلاً، كما نتعرف على مظاهر دخلهم، وتأثير أَحوالهم بالأوضاع الاقتصادية[٤].

(١) الحجي، السلطان الناصر بن قلاوون، ص١٢٨.
(٢) المرجع نفسه، ص١٣٢.
(٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤١٦.
(٤) البطاوي، حسن احمد: اهل العمامة في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط١، (جامعة اسيوط :٢٠٠٧م)، ص١٤٣.

فلقد تمتع فريق من العلماء بالغنى والثراء وعاشوا حياة مترفة، فسكنوا الدور العظيمة، وارتدوا الثياب الفاخرة، وتناولوا الاطعمة الشهية، واقتنوا الجواهري الحسان، والخدم والمماليك فضلا عن ما جمعوه من الادوات المنزلية ومجلدات الكتب النفيسة التي يصعب تقديرها(١).

واذا انتقلنا الى مصادر ثروة هؤلاء العلماء، فقد ذهب احد الباحثين الى ان القضاة والفقهاء استثمروا ثراءهم من المرتبات العينية والنقدية الذي كانوا يتقاضونها من الديوان السلطاني لذلك وضعوا مصالحهم في سلة واحدة مع مصالح الطبقة الحاكمة(٢).

ولكن نرى أن هذا الرأي لا يطابق الواقع اذ لا نستطيع ان نقطع بأن الرواتب التي كان يصرفها الديوان السلطاني مهما بلغت فأنها كانت تصل بصاحبها الى مثل هذه الدرجة من الغنى والثراء، وقد أشار المقريزي(٣) الى ان مرتبات الوزراء والقضاة واعيان الكتاب كانت تكفيهم قبل حدوث الازمات الاقتصادية في بداية القرن التاسع الهجري ، اما بعدها فلم يعد الراتب اليومي يكفي الغداء وحده، وذلك لمن كان راتبه ثلاثين درهماً في الشهر.

أَمَّا المصادر الاخرى للعلماء الاثرياء فهي الاملاك الخاصة بهم ، إذ ان بعضهم عمل بالتجارة، ومنهم من حاز البساتين والاراضي، ومنهم من امتلك الدواليب لصناعة السكر، وغير ذلك، فالقاضي بهاء الدين الحلي المعاصر للسلطان لاجين كانت له الاموال والاملاك والبساتين الكثيرة في مصر وبلاد الشام، فضلا عن العديد من السواقي والدواليب والغلال(٤).

وكانت الأوقاف مصدراً آخر لثراء بعض العلماء، فكان بعضهم من اصحاب الوظائف في هذه المؤسسات يتوارثون الوظائف ابناً عن اب، فضلا عن المخصصات الاخرى النقدية والعينية التي اجرتها هذه الأوقاف عليهم، وقد تباينت المرتبات النقدية بتباين الوظائف، الى ان صاحب الوظيفة العليا كان يحصل راتب اعلى بكثير من صاحب الوظيفة الدنيا، وعلى سبيل المثال خصص السلطان حسن بن محمد بن قلاوون راتباً لمدرس الحديث في مدرسته ثلاثمائة درهم، ولقارئ الحديث اربعين فقط(٥).

---

(١) عاشور، المجتمع المصري، ص٣٣.

(٢) قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ط٢، (القاهرة : ١٩٨٣م)، ص٢٦.

(٣) اغاثة الامة بكشف الغمة، ص٨٥.

(٤) العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٤١١.

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٣، ص٤٣٩، ٤٦٣.

فنرى الفارق واضح بين كبار الموظفين من المعممين، وصغارهم في هذه الرواتب، اما المخصصات العينية، ما كان شهرياً مثل الغلة، او يومياً مثل اللحم والتوابل والخبز والعليق، ولبعضهم السكر والتبغ والزيت والكسوة في الصيف والشتاء والاضحية كل سنة(١).

وأما الرواتب التي كانت للقضاة والعلماء من دواوين الدولة، فأكثرها خمسون ديناراً في كل شهر، وهو مبلغ كبير اذا قورن بمستويات ذلك العصر، ثم تناقصت قيمة هذا المبلغ مع بداية القرن التاسع الهجري حيث بدأت الاسعار بالارتفاع، وشمل التدهور الاقتصادي شتى جوانب الحياة، وكانت الرواتب المخصصة العلماء تصرف من ريع الاوقاف المحبوسة على المؤسسات الدينية والعلمية للموظفين منهم امثال الناظر والشيخ والمدرسين في مختلف فروع العلم التي تدرس، والخطيب والامام وغيرهم من أرباب الوظائف(٢).

ونلاحظ ان تدهور الاوضاع الاقتصادية في اواخر عصر السلاطين المماليك قد اثر تأثيراً واضحاً على وضع العلماء، إذ ارتفعت الاسعار وتضخمت قيمة العملة، فمثلاً كان الدينار يتأرجح ما بين عشرين الى ثلاثين درهماً، ومع تدهور الاوضاع الاقتصادية كان الدينار ما بين ثلاثمائة الى ثلاثمائة وخمسين درهماً، فكان الشيخ في خانقاه سرياقوس يأخذ مائة درهم من أوقاف الناصر محمد شهرياً، فيحسب رتب السلطان برسباي للشيخ ثلاثة آلاف درهماً شهرياً، اي نفس الوظيفة ولكنه زاد عن شيخ خانقاه الناصر عن ثلاثين ضعفاً(٣).

وكان الإمام في قبة المنصور قلاوون يأخذ ثمانين درهماً راتباً شهرياً، ومن الجدير بالملاحظة، فقد وضحت الفروق في الرواتب بسبب الاوقاف السلطانية واوقاف الامراء، فكان راتب الامام في اوقاف الامير جمال الدين الاستادار خمسين درهماً، اما راتب الامام في وقت السلطان برسباي فكان الف درهم شهرياً، ولذلك رغب كثير من العلماء في تولي الوظائف في اوقاف السلاطين، وفضلوها على اوقاف الامراء(٤).

(١) عاشور، المجتمع المصري، ص٣٣، ٣٤.

(٢) العمري، مسالك الابصار، ص٤٩.

(٣) البطاوي، اهل العمامة في مصر، ص١٤٥.

(٤) المرجع نفسه، ص١٤٦.

على ان هناك فئة من العلماء عاشوا في حالة شديدة من الفقر، حتى شبههم المقريزي[١] بأنهم ميت او مشتهي الموت، وهؤلاء هم أرباب الوظائف الصغرى، وطلاب العلم ومن يلحق بهم من الشهود.

وظل معظمهم يعاني شظف العيش حتى يلحق بوظيفة من الوظائف التي تدر عليه دخلاً مريحاً ومن ذلك ان عماد الدين محمد بن اسحاق البلبيسي الفقيه الشافعي (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) عاش فقيراً ليس له سوى معلوم التدريس الذي هو ثمانون درهما بإحدى المدارس، ولذلك كان يذهب الى المدرسة ماشياً، وتارة على حمار مكار، وكان اذا ركب اكترى دابة ضعيفة حقيرة [٢].

وقد الجأت الحاجة بعض العلماء الى مزاولة بعض الحرف لسد متطلبات الحياة، لكنها نسبة قليلة منهم هم الذين اتجهوا الى العمل بالمجالات الحرفية، وهؤلاء العلماء منهم من عمل بالتجارة والزراعة، ومنهم من احترف حرفة مثل صياغة المراوح، والتي عمل بها محمد بن سليمان بن المنير الشافعي احد قضاة الصعيد (ت ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م) فعندما كانت تضيق به الحالة يعمل المراوح بيده، ويأكل من ثمنها فلذلك عرف بالمراوحي[٣].

أمَّا عن المسكن فقد سكن العلماء بيوتاً كلٌ حسب وضعه الاقتصادي، فكبار القضاة والعلماء والكتاب اتخذوا بيوتاً من اجمل بيوت مصر والشام في ذلك العصر، ومثال على ذلك قاضي القضاة جلال الدين القزويني (ت ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م) الذي اتخذ بيتاً على النيل ثم انشأ ابنه بيتاً آخر بجوار بيت ابيه حمل اليه الرخام، واستدعى الصناع من الشام، وبالغ في اتقانه، حيث بلغت النفقة عليه زيادة على خمسمائة الف درهم، كما بالغ في أثاثه، ثم بنى بيتاً آخر بمدينة القاهرة[٤].

وسكن برهان الدين بن جماعة قاضي قضاة الشافعية (ت ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م) دار الامير تنكز، بعد ان اشتراها، فانفق في زخرفتها على ما أشيع سبعة عشر الف درهم[٥].

---

(١) اغاثة الأمة، ص٧٥.

(٢) المقريزي، المقفى الكبير، ج٥، ص١٦٤.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص١١٥.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٤٠.

(٥) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٥٤.

وعندما أتم القاضي شمس الدين محمد القليجي المتوفي في رجب سنة ٧٩٧هـ/ ١٣١٤م بناء داره أخذ في ترخيمها وزخرفتها وبياضها فجاءت في اعظم قال، واحسن هندام، وأبهج زي[١].

أما قاضي القضاة شمس الدين محمد الطرابلسي (ت ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م) فقد بنى داراً جاءت من احسن دور القاهرة[٢].

وكان جمال الدين بن جلال الدين القزويني حريصاً على اقتناء الاواني الفاخرة، والجواري والمماليك، حتى انه باع من الجواري يوم خروجه الى الشام عام (٧٣٨هـ / ١٣٣٧ م) إحدى عشرة جارية[٣].

وأما محدودي الدخل من العلماء، فكانوا يعيشون حياتهم البسيطة مثل عامة المجتمع، فمنهم الشيخ مجد الدين أبو بكر بن اسماعيل بن عبد العزيز الزنكلوني (ت ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) الامام الاصولي المحدث ، الذي كان ذا نفس راضية بحياته المتواضعة، حتى انه كان يحمل طبق العجين على كتفه الى الفرن، ويعود به الى البيت، ويقضي حوائجه من الأَسواق، وكان لا يتردد الى أحد من الامراء ، ويكره أن يأتوا اليه [٤].

ومن بين الجوانب المختلفة للمستوى المعيشي والحياة المادية هي الكساء، وهذه النقطة تحمل معنىً اجتماعياً مهماً في القاهرة عصر سلاطين المماليك، والمؤرخات مليئة بأوصاف الثياب الاحتفالية التي تمنح لمختلف الموظفين، رمزاً لمراكزهم أَو مكانتهم أَو مكافأة أَو اعترافاً بالخدمات التي اسدوها للسلطان، وعلى النقيض من ذلك فأن قطع الملابس التي تفتقر الى القيمة الفنية "إذا وجدت" لم تجد من يجمعها ويدرسها بل اعتبرت من المهملات، لذلك اعتمدنا على المادة الارشيفية لاسيما اوصاف الثياب التي كانت المكتبات تعطيها للصبية الفقراء والايتام الذين يدرسون بها، فكانت ملابس المسلمين بسيطة بلا زخرفة مصنوعة من القماش (الكتان الخفيف) او الحرير الممزوج بالقطن في احسن الاحوال، اما تلك التي ترتديها نساؤهم مطرزة ومذهبة ولا تخرج نساؤهم ابداً الى المدينة حاسرات الوجوه، ولكن هناك قماشاً خفيفاً يغطيها حتى لا ينظر اليهن احد ويرغب فيهن[٥].

---

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار ، ج٢، ص٥٢.

(٢) المصدر نفسه, ج٢، ص٥٢.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٤٠.

(٤) ابن العماد، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، ج ٨، ص ٢٢٠.

(٥) صبره، آدم، الفقر والاحسان في مصر، ط١، ص١٨٢.

وبنظرة استقرائية للحياة الاجتماعية في ذلك العصر نجد أن العلماء لم يكونوا على مستوى معاشي جيد في طول حياتهم والدليل على ذلك ما ذكره المقريزي[١] في تقسيمه وتوزيعه للفئات الاجتماعية حسب المكانة والحظوة **((أن الناس بإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام: القسم الاول أهل الدولة، والقسم الثاني أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية، والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البز ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة، والقسم الرابع أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث، سكان القرى والريف، والقسم الخامس الفقراء، وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس أرباب الصنائع والاجراء أصحاب المهن، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤّال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم))**. بل ذهب المقريزي[٢] أبعد من ذلك في وصف دقيق للمستوى المعيشي للعلماء وما هم عليه من الفقر والفاقة **((فهم ما بين ميت أو مشتهي الموت ، لسوء ما حلَ بهم ، فإنَ أحدهم إذا أتته مائة درهم مثلاً فإنَ ما يأخذ عنها فلوساً أو ثلثي مثقال ينفق ذلك فيما كان ينفق فيه من قبل عشرين درهماً من الفضة ، فلحقهم من أجل ذلك القلَة والخصاصة ، وساءت أحوالهم))**.

وبحسب السنوات التي عاشها العلماء في ظل دولة المماليك البحرية نجد أن العلماء أصحاب الحرف كانوا أكبر المتضررين في الازمات الاقتصادية التي تتمخض عنها زيادة الاسعار ، ومثال على ذلك في سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م عندما غلت الاسعار واشتدت الحالة على الناس **((وَقد توقفت أَحْوَال النَّاس من قلَّة المكاسب لشدَّة الغلاء وَعدم وجود مَا يقتات بِهِ وشح الْأَغْنِيَاء وَقلت رحمتهم وَمَعَ ذَلِك فَلم يزْدَاد أجر الْعمَّال من البناة والفعلة والحمالين وَنَحْوهم من أَرْبَاب الصنائع شَيْئا بل اسْتَقر على مَا كَانَت عَلَيْهِ قبل الغلاء فَمن كَانَ يكْتَسب فِي الْيَوْم درهما يقوم بِحَالهِ ويفضل لَهُ مِنْهُ شَيْء صَار الدِّرْهَم لَا يجدي شَيْئا فَمَاتَ وَمَات أَمْثَاله من الأجراء والعمال والصناع والفلاحين وَالسُّؤَال من الْفُقَرَاء))**[٣] .

(١) المقريزي, إغاثة الامة بكشف الغمة، ص١٤٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٩ .

(٣) السلوك، ج٤، ص٣٧٥ .

الخـــاتمـــــــة

بعد أن انتهينا من عرض المادة العلمية المتعلقة بسيرة العلماء وطبيعة المعيشة التي كانوا عليها ، كان لا بد من عرض أهم النتائج التي توصلت اليها الدراسة .

١. كان لقيام دولة المماليك البحرية أثرا ايجابيا على نشاط العلماء وأثرهم في المجتمع ، بعد انتقال مركز الثقل من بغداد الى مصر وبلاد الشام ، فكانت البيئة مناسبة ومتاحة لهم .
٢. في ظل المجتمع المملوكي الذي غلبت عليه الصفة العسكرية ، كان للعلماء مكانة اجتماعية مختلفة عن سابقاتها من الدول ، بمعنى أن العلماء حسب التصنيف المجتمعي كانوا في الترتيب ما قبل الاخير في المجتمع المملوكي .
٣. على الرغم من استئثار المماليك بالسلطة والمؤسسة العسكرية ، فإن للعلماء مكانة متميزة في الوظائف الديوانية والدينية ذلك بسبب احترام السلاطين لهم ، ومكانتهم عند شرائح المجتمع .
٤. جاء تولي العلماء للوظائف الدينية صمام أمان في الحفاظ على هيبتها ومكانتها وعدم العبث بها من قبل أطماع الامراء وغيرهم من المتنفذين ، فكانوا خير ممثل لتلك المؤسسات الدينية .
٥. وبالنسبة للوظائف الديوانية نجد أن العلماء استوعبوا التطورات الادارية في العصر المملوكي بحيث عملوا على صيانة الاوقاف وبيت المال ، وكذلك ممارسة الكتابة والمراسلات السلطانية التي اشتهرت بها الدولة .
٦. في ضوء الوظائف التي تقلَّدها العلماء نجد أن السيرة الوظيفية لهم بصورة عامة كانت صورة نموذجية ضربوا فيها خير دليل على الكفاءة والامانة والنزاهة ، بعيدا عن المؤثرات السياسية .
٧. على الرغم من أن قسما من العلماء تولى الوظائف ، فإن ذلك لا يعني أن كل العلماء تمتعوا بهذه المكانة والميزة ، إذ أن عددا ليس بالقليل كان يعاني من شظف العيش ووطأة الفقر .
٨. وكشفت الدراسة أن هناك أسماء مشهورة من العلماء ارتضوا أن يمارسوا المهنة والحرفة بمعناها الواسع دون التقيد بالوظيفة بعيدا عن الالتزام الوظيفي .
٩. لذلك عدت الاعمال الحرة موردا أساسيا للعلماء الذين فضلوا عدم الاختلاط بأركان الدولة ومؤثراتها ، فكانت بالنسبة لهم مكان عمل وعلم ، إذ مثلت بعض دكاكين العلماء مكانا لإعطاء العلوم الشرعية .
١٠. على أن هناك بعضا من المهن والحرف التي زاولها العلماء لم تكن تتناسب ومكانتهم العلمية ، إلا أن الحاجة الملحة للمعيشة دفعهم الى ذلك ، منطلقين من ضرورة السعي في الارض .

١١. ويمكن القول: أنَّ العلماء الذين تولوا الوظائف الرسمية كانوا في وضع معاشي جيد في ضوء المرتبات التي أعطيت لهم ، بحيث قاوموا التحديات الاقتصادية التي شهدها المجتمع في تلك الحقبة .

١٢. أَمّا العلماء الذين زاولوا العمل المهني والحرفي فكانوا يعانون قساوة المعيشة لاسيما في أوقات الازمات الاقتصادية وغلاء الاسعار، حتى أنهم يبذلون اقصى ما لديهم لأكل اليوم والليلة .

ثبت المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

أولاً: المصادر الأولية

- ابن الاخوة، ضياءالدين محمد بن محمد بن احمد بن ابي زيد(ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م) ،

١. معالم القربة في احكام الحسبة ، تحقيق د. محمد محمود شعبان و د. صديق احمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب(القاهرة:١٩٧٦م) ،

- الاسنوي، جمال الدين عبد الرحيم (ت: ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م) ،

٢. طبقات الشافعية ، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية ، ط١ ، (بيروت: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٥ م) ،

- الانطاكي، داود عمل (ت: ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م) ،

٣. تذكرة أولي الألباب، الجامع للعجب والعجائب، مؤسسة عزالدين(بيروت: ١٧١١م) ،

- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت: ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م) ،

٤. بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى زيادة (القاهرة: ١٩٦٣م) ،

- البخاري، ابو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت: ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) ،

٥. الجامع المسند الصحيح ، تحقيق الدكتور مصطفى ديب ، دار ابن كثير (بيروت: ١٩٨٧م) ،

- البرزالي, علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) ،

٦. المقتفي على كتاب الروضتين: تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، ط١، (بيروت: ٢٠٠٦م) ،

- ابن بسام، محمد بن احمد (ت: ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) ،

٧. نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام الدين السامرائي، منشورات دار الحداثة، (بغداد: ١٩٩٠م) ،

- البصروي، علاء الدين علي بن يوسف (ت: ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م) ،

٨. صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك: تحقيق أكرم حسن العلي، دار المأمون للتراث (دمشق: د.ت) ،

- ابن بطوطة، شرف الدين ابي عبدالله بن محمد ابراهيم الطنجي(ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧١م) ،

٩. رحلة ابن بطوطة ، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار (القاهرة : ١٩٢٨م) ،

- ابو البقاء، عبد الله بن محمد البدري (ت: ٨٨٧هـ/١٤٨٢م) ،

١٠.نزهة الأنام في محاسن اهل الشام، ط١، دار الرائد العربي (بيروت: ١٩٧٨م) ،
- بيبرس المنصوري (ت: ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م) ،
١١. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالدس، المؤسسة الالمانية للبحث العلمي، ط١، (بيروت : ١٩٩٨ م) ،
- ابن تغري بردي، ابو المحاسن جمال الدين يوسف (ت: ٨٧٤هـ/ ١١٦٩م) ،
١٢. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق يوسف نجاشي ، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة : ١٩٥٦ م) ،
١٣.النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط١، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة: ١٩٣٢م) ،
- ابن تيمية، احمد بن عبد الحليم (ت: ٧٢٨هـ/ ١٠٣٨م) ،
١٤. الحسبة في الاسلام او وظيفة الحسبة الحكومية، دار الكتب العلمية (القاهرة: ١٣١٨هـ/١٨٩٦م) ،
- الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت: ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م) ،
١٥.تاريخ عجائب الآثار في التراجم والاخبار، دار الوكيل (بيروت: د.ت) ،
- ابن جبير، ابو الحسين محمد بن احمد الكناني الاندلسي (ت: ٦١٤هـ/ ١١٤٥م) ،
١٦. رحلة ابن جبير المسماة: تذكرة الاخبار عن اتفاقات الاسفار، دار صادر (بيروت: ١٩٦٤م) ،
- الجواهري، ابو نصر اسماعيل بن حماد (ت: ٣٩٣هـ/١٠٠٢م) ،
١٧.الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين، ط٤ (بيروت: ١٩٨٧م) ،
- ابن الحاج، ابو عبد الله محمد بن محمد(ت: ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) ،
١٨.المدخل الى تنميه الاعمال بتحسين الثبات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها، طبع على نفقة مصطفى فهمي الكتبي وشريكيه، المطبعة الشريفة (القاهرة: د.ت) ،
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين احمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) ،
١٩.ابناء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن الحبشي(القاهرة : ١٩٦٩ م) ،
٢٠.الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق (القاهرة:١٩٧٥م) ،

٢١.رفع الأصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي (القاهرة: ١٤١٨هـ/١٩٩٦م) ،
- الحبيشي، جمال الدين محمد بن عبد الرحمن (ت: ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م) ،
٢٢.البركة في فصل السعي والحركة وما ينجي بإذن الله تعالى من الهلكة ، عناية اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط١،(بيروت: ٢٠١٦م) ،
- الحنفي، محيي الدين عبد القادر بن محمد (ت: ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م) ،
٢٣.الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ، تحقيق: د.عبد الفتاح عمر الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، (القاهرة: ١٩٩٣م) ،
- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت: ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) ،
٢٤.تاريخ ابن خلدون ، المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن : خليل شحاذه، مراجعة سهيل زكار، ط٢، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع (بيروت: ١٩٨٨م) ،
٢٥.المقدمة ، دار الفكر (بيروت : د . ت) ،
- ابن دقماق، ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي (ت: ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) ،
٢٦.الانتصار بواسطة عقد الامصار، المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع والنشر (بيروت: د.ت) ،
- الذهبي، محمد بن احمد بن عثمان (ت: ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) ،
٢٧. تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق عبد السلام تدمري،ط١، دار الكتاب العربي،، (بيروت: ١٩٩٤م) ،
٢٨.ذيول العبر، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية (بيروت: د. ت) ،
٢٩.العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط٢، مطبعة حكومة الكويت (الكويت: ١٩٦٠م) ،
- ابن رافع، تقي العيسى محمد بن هجرس (ت: ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) ،
٣٠.الوفيات، تحقيق: صالح مهدي ياس والدكتور بشار عواد معروف، ط٢، مؤسسة الرسالة، ٢(بيروت: ١٩٨١م) ،
- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) ،
٣١.تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الفتاح الحلو (الكويت: ١٩٨٤م) ،

➢ السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت: ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) ،
٣٢.طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق:عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناجي،ط١ (القاهرة: ١٩٦٤م) ،
٣٣.معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد علي النجار ابو زيد الشلبي، ومحمد ابو العون، دار النهضة (القاهرة: ١٩٨٦م) ،
➢ السحماوي ، شمس الدين محمد (ت ٨٦٨ هـ / ١٤٦٤م) ،
٣٤.صناعة الكاتب والكاتم المعروف باسم المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشاء للخالدي، تحقيق: د.اشرف محمد أنس مطبعة دار الكتب والوثائق القومية(القاهرة:٢٠٠٩م) ،
➢ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت: ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) ،
٣٥.التبر المسبوك في ذيل السلوك ، ط١ ، تحقيق نجوى مصطفى كامل، لبيبة ابراهيم مصطفى ، دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة:٢٠٠٢م) ،
٣٦.الضوء اللامع لأهل القرن التاسع،ط١، دار الجيل، (بيروت: ١٩٩٩م) ،
➢ السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن(ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) ،
٣٧.حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط١ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي (القاهرة : ١٩٦٧ م) ،
➢ ابو شامه المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل (ت: ٦٩٧هـ/ ١٢٦٦م) ،
٣٨.الذيل على الروضتين، طبع بعنوان تراجم القرنين السادس والسابع، نشر: عزت العطار، ط٢، دار الجيل (بيروت: ١٩٧٤م) ،
➢ ابن شاهين الظاهري، غرس الدين بن خليل (ت: ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) ،
٣٩.زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تصحيح بولس راويس،مطبعة الجمهورية (باريس: ١٨٩٢م) ،
➢ الشجاعي، شمس الدين (ت: ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) ،
٤٠.تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي واولاده، تحقيق: برباره شيفر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه (القاهرة: ١٩٧٨م) ،
➢ ابن الشحنه، احمد بن محمد بن محمد ابو الوليد (ت: ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م) ،
٤١.الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق: عبدالله محمد درويش، دار الكتاب العربي (القاهرة:١٩٧٩م) ،

- الشيباني , محمد بن الحسن (ت: ١٨٩هـ/ ٨٠٤م) ،

٤٢.الاكتساب في الرزق المستطاب، تحقيق: الشيخ محمود عرنوس (دمشق: ١٩٣٨م) ،

- شيخ الربوة، محمد بن ابي طالب ((ت: ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م) ،

٤٣.نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار العروبة (بيروت: ٢٠٠٣م) ،

- الشيزري، عبد الرحمن بن بصر (ت: ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) ،

٤٤.نهاية الرتبة في طلب الحسبـــة، تحقيق: السيد البــاز العريني(القاهرة:١٩٤٦م) ،

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت: ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) ،

٤٥.اعيـان العصـر واعـوان النصـر، تحقيـق: علـي ابـو زيـد وآخـرون،ط١، دار الفكـر المعاصر، (بيروت: ١٩٩٨م) ،

٤٦.الـوافي بالوفيـات، تحقيـق احمـد الارنـاؤوط وتركـي مصـطفى، ط١، دار احيـاء التـراث العربي، (بيروت: ٢٠٠٠م) ،

- الصقاعي، فضل الله بن ابي الفخر (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م) ،

٤٧.تالي كتاب وفيات الاعيان، تحقيق: جاكلين سوبلة, منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية (دمشق: ١٩٧٤م) ،

- ابن الصيرفي، علي بن داود الخطيب(ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م) ،

٤٨.انباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي (القاهرة : ١٩٧٠ م) ،

٤٩.نزهــة النفوس والابدان في تواريخ اهل الزمان، تحقيق حسن حبشي (القاهرة:١٩٧٣م) ،

- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي الصالحي (ت: ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) ،

٥٠.مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق: خليل عدوان المنصور، دار الكتب العلمية، (بيروت:/ ١٩٩٨م) ،

- ابن عبد الحق، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت: ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) ،

٥١.مراصـد الاطــلاع علـى اسمــاء الامكنـــــــة والبقــاع، ط١، دار الجبيـل، (بيـروت: ١٩٩١م) ،

- ابــن عبـد الظاهـر، محـي الدين ابـو الفضل عبـدالله (ت : ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م) ،

٥٢.الالطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الملكية الاشرافية، نشر سويدية (ليسبك: ١٩٠٢م) ،

٥٣.تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، ط١، مطبعة العربية للطبعة والنشر (القاهرة: ١٩٦١م) ،

➢ ابن العماد الحنبلي، ابو الفلاح عبدالحي (ت: ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨م) ،
٥٤.شذرات الـــذهب في اخبـار من ذهب ، دار الفكـر للطبـاعـة والنشر(بيروت: د.ت) ،
➢ العمري، شهاب الدين احمد بن يحيى (ت:/ ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) ،
٥٥.التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية (بيروت، ١٩٧٥م) ،
٥٦.مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: دوروتيا كرافولكسي، ط١، الناشر المركز الاسلامي للبحوث ، (بيروت: ١٩٨٦ م) ،
➢ العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (ت: ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) ،
٥٧.السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي ، ط١ ، تحقيق: فهيم محمود شلتوت، مراجعة: محمد مصطفى زياده،ط١، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، (القاهرة: ١٩٩٨م) ،
٥٨.عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب (القاهرة: ١٩٨٨م) ،
➢ الغزي، نجم الدين محمد بن محمد بن أحمد (ت: ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٠م):
٥٩.الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، ط٢، دار الآفاق الجديدة (بيروت: ١٩٧٩م) ،
➢ الفاخري, بدر الدين بكتاش (ت ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) ،
٦٠.تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: رودلف سلي، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (القاهرة: ١٩٨٧م) ،
➢ ابو الفدا ، عماد الدين اسماعيل (ت: ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) ،
٦١.المختصر في اخبار البشر، ط١، المطبعة الحسينية (القاهرة: د.ت) ،
➢ ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم الحنفي (ت: ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م) ،
٦٢.تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق نجلاء عز الدين، منشورات كلية العلوم والآداب، المطبعة الامريكانية (بيروت: ١٩٣٩م) ،
➢ ابن فهد، ابو الفضل تقي الدين محمد بن محمد (ت: ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م) ،
٦٣.لحظ الالحـــاظ بذيل طبقات الحفاظ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت: ١٩٩٨م) ،
➢ القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت: ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) ،
٦٤.آثار البلاد واخبار العباد، دار صادر للطباعة والنشر (بيروت: ١٩٦٠م) ،
➢ القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي (ت : ٨٢١ هـ / ١٤١٨م) ،

٦٥.صبح الاعشى في صناعة الإنشا ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (بيروت: د.ت) ،
- الكتبي، محمد بن شاكر بن احمد (ت: ٧٦٤هـ/ ١٣٦١م) ،
٦٦.فوات الوفيات، تحقيق احسان عباس، دار صادر (بيروت: ١٩٧٣م) ،
- ابن كثير، عماد الدين اسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) ،
٦٧.البداية والنهاية، ط١، دار ابي حيان، (القاهرة: ١٩٩٦م) ،
٦٨.تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد شمس الدين،ط١، دار الكتب العلمية ، (بيروت: ١٤١٩م) ،
- ابن ماجه، ابو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م) ،
٦٩.سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر (بيروت: د.ت) ،
- الماوردي ، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) ،
٧٠.الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تحقيق خالد الجميلي ، دار الحرية للطباعة (بغداد : ١٩٨٩م) ،
- ابن المبرد،جمال الدين يوسف بن حسن بن عبدالهادي المقدسي(ت:٨٤٠هـ/١٤٣٦م) ،
٧١.رسائل دمشقية ،تحقيق صلاح محمد الخيمي ، دار ابن كثير (دمشق:١٩٨٨م) ،
- المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت: ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) ،
٧٢.اغاثة الامة بكشف الغمة، تقديم سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الهلال (مصر: د.ت) ،
٧٣.البيان والاعراب عما بأرض مصر من الإعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، ط١، عالم الكتب (القاهرة: ١٩٦١م) ،
٧٤.درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة ، تحقيق محمد عثمان ، ط١ ، دار الكتب العلمية (بيروت : ١٩٧١ م) ،
٧٥.السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية (بيروت: ١٩٩٧م) ،
٧٦.المقفى الكبير، تحقيق علي العيلاوي ، دار المغرب الاسلامي (بيروت ١٩٩٠ م) ،
٧٧.المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (المعروف بالخطط المقريزية) ، الناشر مكتبة الآداب (القاهرة : د.ت) ،
- الملطي، زيد الدين عبد الباسط بن خليل (ت: ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م) ،

٧٨.نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق: عمر عبد السلام القدري، المكتبة العصرية (بيروت، ٢٠٠٢م) ،

- ابن مماتي، الاسعد بن مماتي (ت: ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م) ،

٧٩.قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي (القاهرة: ١٩٩١م) ،

- ابن منظور, جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/١٣١١م) ،

٨٠.لسان العرب، دار صادر،(بيروت: ١٩٦٨م) ج١٢، ص١٣٢،

- النابلسي، عثمان بن ابراهيم (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) ،

٨١. لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية,ط١, دار الفكر العربي, (بيروت: ١٩٨٩م) ،

- النعيمي، عبدالقادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م) ،

٨٢. الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: ابراهيم شمس الدين,ط١, دار الكتب العلمية , (بيروت: ١٩٩٠م) ،

- النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت: ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) ،

٨٣.نهاية الارب في فنون الادب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (القاهرة: د.ت) ،

- الهروي، محمد بن أحمد بن الأزهري (ت: ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م) ،

٨٤.الاكتساب في الرزق المستطاب، تحقيق: الشيخ محمود عرنوس (دمشق: ١٩٣٨م) ،

- الونشريسي، أحمد بن يحيى (ت: ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م) ،

٨٥.المنهج الفائق والمنهل الرائق بآداب الموثق بأحكام الوثائق، تحقيق لطيفة الحسني، وزارة الثقافة والشؤون الاسلامية (المغرب: ١٤١٨م) ،

- ياقوت الحموي، شهاب الدين بن عبدالله (ت:٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) ،

٨٦.معجم البلدان ، دار صادر (بيروت : ١٩٩٥م) ،

- ابو يعلى، احمد بن علي بن المثنى ابو يعلى الموصلي التميمي(ت: ٣٠٧هـ/ ٩١٩م) ،

٨٧.هند أبي ليلى، حققه وخرج احاديثه: حسن سليم أسعد، ط١، دار المأمون للتراث (دمشق: ١٤٠٨م) ،

- اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت: ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م) ،

٨٨.نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيط، ط١، (بيروت: ١٩٨٦م) ،

ثانياً: المراجع الحديثة:

- الانصاري, ناصر،

٨٩.المجمل في تاريخ مصر، النظم السياسية والادارية، ط١، دار الشروق (القاهرة: ١٩٩٣م) ،

- الباشا, حسن،

٩٠.الألقاب الدار الفنية للنشر والتوزيع (القاهرة : ١٩٨٩ م) ،

- بروكلمان، كارل،

٩١.تاريخ الشعوب الاسلامية, دار العلم للملايين (بيروت : ١٩٦٨م) ،

- البطاوي ، حسن احمد

٩٢.اهل العمارة في مصر عصر سلاطين المماليك ، ط١، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية (جامعة اسيوط : ٢٠٠٧م) ،

- البيومي اسماعيل ،
- النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة : ١٩٩٨ م) ،
- حتي، فيليب
- تاريخ العرب، ط٢, (بيروت: ١٩٦١م) ،
- الحجم, رفيق:

٩٣.الموسوعة مصطلحات علم التاريخ الحربي الاسلامي ، ط١، مكتبة لبنان ناشرون (بيروت: ٢٠٠٠م) ،

- حياه ناصر،

٩٤.السلطان محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، ط١، مكتب الفلاح (الكويت: ١٤٠٣م) ،

٩٥.صور من الحضارة العربية الاسلامية في سلطنة المماليك،ط١، دار القلم للنشر والتوزيع، (الكويت: ١٩٩٢م) ،

- حسن، علي ابراهيم،

٩٦.تاريخ المماليك البحرية، ط٣، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة: ١٩٦٧م) ،

- حمزة، عبد اللطيف،

٩٧.الحركة الفكرية في مصر في العصر الايوبي والمملوكي الاول، ط٨، دار الفكر العربي (القاهرة: ١٩٦٨م) ،

➢ دهمان، محمد احمد،
٩٨. معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي،ط١، دار الفكر، (بيروت: ١٩٩٠م) ،
➢ رمضان, احمد،
٩٩. الايجازات والتوقيعات، مطبعة هيئة الاثار المصرية (القاهرة : ١٩٨٥م) ،
➢ زعرور، ابراهيم،
١٠٠. الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الايوبي والمملوكي (دمشق: ١٤١٣م) ،
➢ أبو زيد، سهام مصطفى،
١٠١. الحسبة في مصر الاسلامية من الفتح الاسلامي الى نهاية العصر المملوكي، الهيئة المصرية للكتاب (القاهرة: ١٩٨٦م) ،
➢ زيود، محمد أحمد،
١٠٢. حالة بلاد الشام منذ العصر الطولوني وحتى نهاية العصر الفاطمي، دار الفكر (دمشق: د.ت) ،
➢ سليم، محمود رزق،
١٠٣. عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي الناس مكتبة الآداب، مطبعة المتوكل (مصر: ١٩٤٧م) ،
➢ شبارو، عصام،
١٠٤. تاريخ المشرق العربي الاسلامي، دار الفكر اللبناني (بيروت: ١٩٩٩م) ،
➢ الشيال، جمال الدين،
١٠٥. تاريخ مصر الاسلامية، الناشر: ، ط١، دار المعارف، (القاهرة: د.ت) ،
➢ الشيخلي، صباح ابراهيم،
١٠٦. الاصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها (بغداد: د.ت) ،
➢ صبرة ، ادم،
١٠٧. الفقر والاحسان في مصر، ط١ ، ترجمة قاسم عبدة قاسم(القاهرة : ٢٠٠٣م) ،
➢ العادل، فؤاد،
١٠٨. المجتمع الشامي، وزارة الثقافة والارشاد القومي (دمشق، د.ت) ،
➢ عاشور، سعيد عبد الفتاح،
١٠٩. دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية العربية .
١١٠. العصر المماليكي في مصر والشام ، ط٢ ، دار النهضة العربية(القاهرة: ١٩٧٦م) ،
١١١. مصر في عصر دولة المماليك البحرية (القاهرة: ١٩٥٩م) ،

١١٢. المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط١، مطبعة النهضة (القاهرة: ١٩٦٢م) ،
١١٣. الايوبيون والمماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة:١٩٩٩م) ،
- العبادي، أحمد مختار،
١١٤. قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر (بيروت: ١٩٦٩م) ،
- علاوي ، عمار مرضي،
١١٥. دراسات في التاريخ المملوكي، ط١، دار زهران للنشر والتوزيع، (عمان: ٢٠١٦م) ،
١١٦. النشاط التجاري في مصر وبلاد الشام في ظل دولة المماليك البحرية ،ط١، مؤسسة الرسالة ناشرون ، (بيروت: ٢٠١٧م) ،
- العلبي، اكرم حسن: ،
١١٧. مدينة دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، الشركة المتحدة(دمشق: ١٤٠٢هـ/١٩٨١م) ،
- علي ، محمد كرد،
١١٨. خطط الشام ، ط٢ ، مكتبة النوري (دمشق : ١٤٠٣ م) ،
- العناقرة ، محمد :
١١٩. المدارس في مصر في عصر دولة المماليك ، ط١ ، المجلس الاعلى للثقافة (القاهرة : ٢٠١٥ م) ،
- عنان, محمد عبدالله،
١٢٠. مصر الاسلامية ، ط١، مطبعة دار الكتب المصرية ، (القاهرة : ١٩٣١ م) ،
- غوانمة: يوسف درويش،
١٢١. التاريخ الحضاري, دار الفكر للنشر والتوزيع (عمان : ١٩٨٢م) ،
١٢٢. تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي, دار الحياة(عمان: ١٩٨٢م) ،
- قاسم، قاسم عبده،
١٢٣. اسواق مصر في عصر سلاطين المماليك ، مكتبة سعيد رأفت (القاهرة:١٩٧٨م) ،
١٢٤. دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي (عصر سلاطين المماليك) ، ط٢ ، دار المعارف (القاهرة : ١٩٨٣ م) ،
١٢٥. عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ط١، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية (القاهرة: ١٩٩٨م) ،

➢ ل.أ. سيمنوفا،
١٢٦. تاريخ مصر الفاطمية، ترجمة وتحقيق: حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة: ٢٠٠١م) ،
➢ ماجد،عبد المنعم،
١٢٧. التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الانجلو المصرية (القاهرة: ١٩٨٨م) ،
١٢٨. نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر،مكتبة الانجلو المصرية (القاهرة: ١٩٨٥م) ،
➢ ماير،
١٢٩. الملابس المملوكية، ترجمة صلاح الشيني، (مصر: ١٩٧٢م) ،
➢ محمد، محمد أمين،
١٣٠. الأوقاف والحسبة الاجتماعية، ط١، (القاهرة: ١٩٨٠م) ،
➢ موير، السير وليم:
١٣١. تاريخ دولة المماليك الاولى في مصر والشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر (بيروت: ١٩٩٥م) ،
➢ المنجد, صلاح الدين،
١٣٢. مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين، ط١، بيروت (دار الكتاب الجديد، ١٩٦٧م) ،
➢ النقاش، زكي،
١٣٣. العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، منشورات الكتاب اللبناني للطباعة والنشر (بيروت: ١٩٣٦م) ،
➢ هنتس، فالتر:
١٣٤. المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي (عمان: ١٩٧٠م) ،
➢ اليوزبكي، توفيق سلطان:
١٣٥. تاريخ تجارة مصر في البحرية في العصر المماليكي (الموصل: ١٩٧٥م) ،

ثالثاً: الدوريات:

- علاوي, عمار مرضي،

١. اثر المغاربة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي القضاء انموذجاً، مجلة ديالى للبحوث الانسانية, ع٥٦, (ديالى:٢٠١٢م) ،

٢. الحياة العيشية والاقتصادية للعلماء في العصر المملوكي ،مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية, ج١, ع٢٩, (واسط: ٢٠١٨م) ،

٣. شيخ الاسلام تقي الدين ابن دقيق العيد ومواقفه من سياسة الدولة المملوكية، مجلة جامعة الانبار للعلوم الانسانية ،ع٣, (الانبار:٢٠١٦م) ،